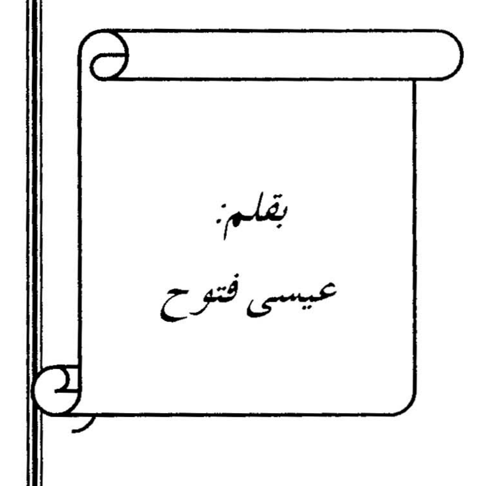
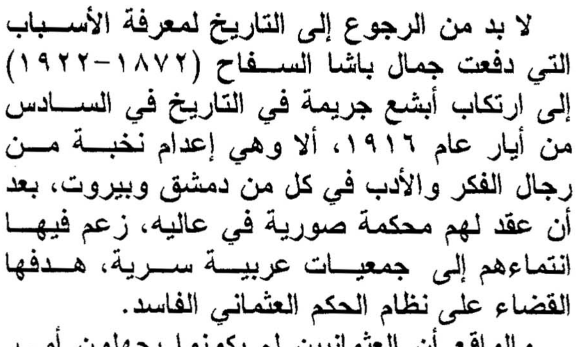
الشهداء في الشعر العربي المعاصر





لا بد من الرجوع إلى التاريخ لمعرفة الأسباب التي دفعت جمال باشا السفاح (١٨٧٢-١٩٢٢) إلى ارتكاب أبشع جريمة في التاريخ في السادس من أيار عام ١٩١٦، ألا وهي إعدام نخبة من رجال الفكر والأدب في كل من دمشق وبيروت، بعد أن عقد لهم محكمة صورية في عاليه، زعم فيها انتماءهم إلى جمعيات عربية سرية، هدفها القضاء على نظام الحكم العثماني الفاسد.

والواقع أن العثمانيين لم يكونوا يجهلون أمر هذه الجمعيات السرية والحركات القومية، لذلك أخذوا يبثون العيون وينشرون الجواسيس في كل مكان، ليتسقطوا أخبار هؤلاء الأحرار، ويرصدوا تحركاتهم ونشاطاتهم. ولم يكونوا في بادئ الأمر يظهرون القسوة والشدة، كما يبدو من المفاوضات التي عقدوها في باريس مع زعماء هذه الحركات برئاسة عبد الحميد الزهراوي، إلا أنهم راحوا يتحينون الفرصة للإيقاع بهم، والقضاء عليهم.

فلما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، ووقفت تركيا ضد الحلفاء، عمدت إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية، وتفتيش القنصليات المعادية لها، فعثرت - كما تزعم - على بعض الوثائق السرية التي تفضح أمر تلك الجماعات العربية، ودعوتها الصريحة إلى الحرية والاستقلال، فقبضت على نفر من أقطاب هذه الجمعيات، وفر الآخرون إلى أوروبا ومصر.

عندما أحيلت تلك الوثائق إلى الديوان العرفي في عاليه، حُكم على نخبة من أعيان الوطنيين بالموت شنقاً، ونفذ حكم الإعدام عام ١٩١٦ في كل من دمشق وبيروت، وحكم غيابياً على أكثر من ستين من الوجهاء، إضافة إلى من عوقبوا بالنفي والسجن.

لقد كان لتلك الحادثة الأليمة رد فعل كبير في نفوس العرب من مقيمين ومهاجرين، إذ وحّدت مشاعرهم، وقاربت بين طوائفهم، وألفت بين قلوبهم، وجعلتهم يحسون بالظلم الفادح والأسى المرير، وباعدت بالمقابل شقة الخلاف بين العرب والأتراك، فكان أن فجرت ثورة الشريف حسين في حزيران من العام نفسه، وقد أشار الزهاوي إلى هذا الخلاف بقوله:

بنـــي يعـــربٍ لا تـــأمنوا التـــركَ بعـــدها

بنــــي يعـــــربٍ إن الــــذئابَ تصـــــولُ

لَعَمْـــرُكَ لـــيس الأمـــرُ ذنبـــاً أصـــابه

قصـــاصٌ، ولكـــنْ يعـــربٌ ومغـــولُ

لم يكن في وسع الشعراء المقيمين في الـوطنِ خلال تلك الأيام العصيبة أن ينتصروا بشعرهم علنا لهؤلاء الشهداء الذين كانوا القافلة الأولى من الضحايا تقدمها بلادهم في سبيل الأمة العربية، كما يقول الدكتور أمجد الطرابلسي(١)، فقد كان سيف الطغيان مصلتاً على الأعناق، وكان الإنسان يؤخذ بالشبهة بله القرار، فانطوى هؤلاء الشعراء على أنفسهم، وقلوبهم تقطر دماً ينتظرون اليوم الذي يستطيعون فيه أن ينفسوا عن آلامهم، وينشروا ما نظموه في بكاء شهدائهم، بعكس شعراء المهجر الذين استجابوا لتلك الحادثة الأليمة في حينها، وعبروا عن مشاعرهم أصدق تعبير، كالقروي، والياس فرحات، وأبي الفضل الوليد، وجورج صوايا، والأخوين عقل وشكر الله الجر، ويوسف عساف، وجورج أطلس وغيرهم.

ومهما يكن من أمر فإن الشعراء العرب الذين عانوا من هول هذه الجريمة النكراء، عمدوا إلى إخفاء قصائدهم، وتناقلها بشكل سري، شفاهاً أو كتابة، وإن لم يعمدوا إلى نشرها في الصحف والمجلات، ومن هؤلاء:

- ١ -

محمد الشريقي في قصيدته "" هل تذكرين"" التي نظمها حين كان سجيناً في قلعة دمشق عام ١٩١٦ ورثى فيها شهداء السادس من أيار الذي علقهم جمال باشا على الجذوع، فتقدموا إلى الموت بلا خوف أو رهبة، والبِشر يطفح من وجوههم:

للهِ شـــبانُ الـــبلادِ وشـــيْبُهَا

باســـمِ الـــبلادِ علـــى الجـــذوعِ تُعَلَّـــقُ

يتقـــدمون إلـــى الـــردى بتبسّـــمٍ

لا يرهبـــون المـــوتَ وهـــو مُحَقَّـــق

(١) شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ص(٥٥).

ثم يتحدى الأتراك، ويتمرد على كيدهم وظلمهم، ويتظاهر بالتفاؤل، لأن هذا الظلم لا بد أن يمحق يوماً ما وهو قريب:

لِيَكِـــلْ لنـــا الأوغـــادُ مـــا شـــاؤوا أذىً

لا بـــدَّ أن الظلـــمَ يومـــاً يُمْحَـــقُ

جـــاروا علـــى العـــرْبِ الكـــرامِ وهيمنـــوا

وتنطّعـــوا فـــي حكمهـــمْ وتزنـــدقوا

ويسترسل في وصف مظالم الأتراك، وسرد مساوئ حكمهم، وتضييقهم الخناق على العرب، لإذلالهم وكسر شوكتهم فيقول:

حتـــى إذا قلـــبَ الزمـــانُ مِجَنَّـــهُ

حكمـــوا علينـــا بالشـــقاءِ وأغرقـــوا

حفـــروا لنـــا حفـــرَ المنـــونِ تشـــفياً

وَبَغَـــوْا علينـــا بَغْـــيَهُمْ لـــم يتقـــوا

ولم يجد مبرراً لنقمة الأتراك على العرب إلا حبَهم لوطنهم، هذا الحب الذي أقره الله في جميع الديانات السماوية، ومتى كان الإنسان يعاقب على الحب؟:

نقمـــوا علينـــا أن نحـــبَ بلادَنـــا

والحـــبُ فـــي شـــرعِ الإلـــهِ مُصَـــدَّقُ

وتبلغ به النقمة مبلغها، فيقذفهم بحمم من بركان غضبه، حتى ليجعلهم سفلة ولئاما، قد تجردوا من الأخلاق، ونبذوا الشريعة والدين، واستحلوا كيد الرعية، وقضوا بكل ما يقلقها ويدب الرعب في نفوسها:

مـــا كنـــت أحْسَـــبُ أن يســـودَ معاشـــرٌ

ســـفلٌ بغيـــرِ اللـــؤمِ لـــم يتخلّقـــوا

نبـــذوا الشـــريعةَ واســـتحلّوا كيـــدَهَا

وقَضَـــوْا بمـــا منـــه الرعيـــةُ تَفْـــرَقُ

وينتهي إلى اتهام جمال باشا بالتسلط والدكتاتورية، والاستبداد بالرأي، والتحكم بالأفراد، فهو لا يعمل إلا بوحي من وجدانه المريض، وهذا في رأيه منتهى الخرَق والطيش:

فـــردٌ لـــه مـــا شـــاء فـــي أحكامِـــه
وتحكُـــمُ الأفـــرادِ شـــرعٌ أخـــرقُ

-٢-

كذلك يتحدى الشاعر حليم دموس الأتراك الذين أودعوه السجن وحيداً، مهملاً، لو سار جمال باشا في ظلمته لما استطاع أن يراه، لكنه يستبشر خيراً بالغد، فلا بد أن يشرق فجر الحرية، وينقشع ظلام السجن المخيم الذي نشره المستبدون:

أنـــا فـــي سـجني وحيـــداً أحتسـي
خمـــرةَ الأتـــراحِ لا خمـــر الـــدنانِ
مهمـــلٌ فـــي غرفـــة مظلمـــةٍ
لـــو مشـــى السـفاحُ فيهـــا لا يرانـــي
لـــيس لـــي ذنـــبٌ ســـوى حريـــةٍ
ســـببتْ ســـجني وقهـــري وهـــواني
يـــا أيهـــا الظـــلاّمُ جـــوروا واحكمـــوا
وازرعـــوا الـــويلاتِ فـــي كـــلِ مكـــانِ
فغـــداً ينشـــقُّ جلبـــابُ الـــدجى
ونـــرى فـــي مطلـــعِ الفجـــر الأمـــاني

-٣-

أما الشاعر خير الدين الزركلي فقد نعى شهداء السادس من أيار بقصيدة وطنيـة مـؤثرة، تهـيج النفوس، وتوقظ فيها الشعور بالعزة والكرامـة، إذ عرف كيف يستثير العواطف، ويحـرك المشـاعر ويبعث فيها الأسى:

نعـــى نـــادبُ العُـــرْبِ شـــبانَهَا
فجـــدَّد بـــالنعي أحزانَهَـــا
بكـــى كـــلُ ذي عـــزةٍ تربَيَـــهُ
فهـــاج نـــزاراً وعـــدنانَهَا
فمـــن للمـــدامعِ ألا تفـــيضَ
وترســـلَ كالســـيلِ هتّانَهَـــا
فجـــائعُ هـــنَّ حـــديثُ القلـــوبِ
وهيهـــاتَ تســـطيعُ ســـلوانَهَا

ثم يشير إلى أن شهداء السادس من أيار كانوا في طليعة مثقفي الأمة العربية ممن أتقنوا الشعر والأدب واللغة والبيان، وعملوا لرفعتها وعزهـا، ولذلك كانت الخسارة فـيهم كبيـرة، لا يمكـن أن تعوّض:

نعـــت لغـــةُ العـــربِ مـــن أحكمـــوا
لســـانَ قـــريشٍ وتبيانَهَـــا
وناحـــت علـــى مـــن بَنَـــوا عزَّهَـــا
وأعلـــوا بمـــا أُثِّلـــوا شـــانَهَا

وينتقل بعد ذلك إلى ما كان لهؤلاء الشهداء من فضل في التعجيل بإعلان الثورة العربيـة الكبـرى التي اندلعت في حزيران عام ١٩١٦، أي بعد أقـل من شهر واحد من إعدام الشهداء:

أبـــى الســـيف إلا انتقامـــاً لهـــا
وخـــاف علـــى الضـــيمِ خســـرانَهَا
أثـــار بنـــي هاشـــمٍ فـــي الحجـــازِ
وأنطـــقَ فـــي التُـــرْبِ حسّـــانَهَا
كتائـــبُ هبَّـــتْ تلبـــي الـــدعاءَ
وتطـــوي القفـــارَ وكثبانَهَـــا
بـــرمحٍ يـــرنُ، وعَضْـــبٍ يـــئنُّ
ينّبـــهُ فـــي التـــرك وَسْـــنَانَهَا

-٤-

وهذا هو الشاعر خليل مردم بك ينظم قصـيدة رائعة في ذكرى مرور ثماني سنوات على إعـدام شهداء السادس من أيار، يبدؤها بالبكـاء علـيهم بكاء مراً، ويعبر فيها عن الألم العميق الذي سيظل يحس به أهل الشام على مر السنين:

لا هَـــمَّ دمعـــي مـــن طـــولِ البكـــا نفـــدا
فَهَـــبْ لعينـــي مـــا أبكـــي بـــه الشُّـــهدا
ومـــا الـــدموعُ وإن جـــادت بمنجـــدةٍ
فاجعـــلْ لهـــا مـــن دمـــي أو مهجتـــي مـــددا
لُـــؤْمٌ بمـــن لا يُريـــق الـــدمعَ تكرمـــةً
لمـــن أريقـــت دمـــاهُمْ للـــبلادِ فـــدا

في مثلِ ذا اليومِ في هذا المكان على
هذي الجذوعِ علت أرواحُهُمْ صُعُدا

ثم يتحدث عن أثر هذه الذكرى الأليمة في النفوس، فهي تجدد الحزن والجوى، وتقرح القلب والعينين، ولذلك ترى ظل الكآبة ممدوداً في كل مكان:

هل تذكرون؟ وما بالعهدِ من قدمٍ
يوماً أراكم ضحاهُ طالعاً أبدا
فلو تراهم على الأعواد ماثلةً
أجسامُهُمْ لَفَقَدْتَ الصبرَ والجَلَدا
تواجه الشمسُ منهم أوجهاً نضرت
كالماسِ في الشمسِ لألاءً إذا اتقدا
كأن إطراقَهُمْ في طولِ صمتهمُ
كمن يراجع معنىً رائعاً شَرَدَا

ولا شك في أن الشاعر خليل مردم بك كان صاحب مدرسة فريدة في النظم، تقوم
على الوصف، وتعتمد حاسة البصر بالدرجة الأولى، يمدها خيال وثاب، حتى لتغدو الصورة لوحة حية، ترتاب فيها العين، فتتقراها اليدان باللمس.

إن شعره حافل بمثل هذه الصور البديعة، رغم الإطار القاتم الذي يحيط بها، وهل هنالك أبدع من تصويره إغضاء الشهداء بإغضاء الكريم عن الإساءة، وتشبيهه أعناقهم المائلة بقطيع أنهكه العطش فورد الماء ليشرب؟:

كأن إغضاءَ هُم إغضاءَ ذي كرمٍ
عن الإساءةِ خُلْقاً طاهراً وهدى
ومشرئبين بالأعناقِ تَحْسَبُهُمْ
وِرْداً من الهِيمِ نحوَ الماءِ قد وردا
تهفو رقابُهُمُ نحوَ السماءِ كمن
له بها حاجةٌ إدراكُهَا بَعُدا

ثم يؤكد لنا أن الشهيد أجل في النفس من ملك فوق سريره، وما الصحيفة التي تعلق على صدره، إلا وسام فخر يشهد له بالمجد والرفعة:

أقسمت بالله للمصلوبُ في شرفٍ
أمسى على الجذعِ مثلَ الشِّلْوِ منفردا
أجلُّ في النفسِ من مَلْكٍ تحفُّ به
جلالةُ المُلْكِ إنْ فوقَ السرير بدا
صحيفةُ الحكمِ في صدرِ الشهيدِ غدت
وسامَ فخرٍ له بالمجد قد شَهِدا

-٥-

أما الشاعر عدنان مردم بك، فقد تأثر خطوات والده في الشعر، وزاد بأن أصدر ثلاثة دواوين هي: ""نجوى"" و ""صفحة ذكرى"" و ""عبير من دمشق"" إضافة إلى عشر مسرحيات شعرية، نهج فيها نهج شوقي وعزيز أباظة، ولا يعنينا الآن من شعره إلا قصيدته ""ذكرى يوم الشهداء"" التي نظمها عام ١٩٤٤، وألقاها في مهرجان شهداء القومية العربية الذين شنقهم جمال باشا.

تحدث في مستهل القصيدة عن بذل الشهداء السخي، وعطائهم اللامتناهي، وهل هنالك بذل أثمن من أن يضحي الإنسان بروحه، ويقدم دمه رخيصاً في سبيل وطنه؟:

يا فتيةً مهروا المعالي عن رضاً
بدمائِهِمْ واسترخصوا المبذولا
هل بعد بذلِكُمُ الحياةَ لمن بغى
سُبُلَ المكارمِ ما يُعَد جليلا
قدرتُمُ قيمَ المكارمِ حقَّها
لما طرقتم بابَهَا المقفولا

ثم يبارك تلك الدماء المسفوحة على التراب، تسقي أرض الوطن العطشى، وتلك الأجساد الذاوية النحيلة التي انتثرت هنا وهناك كأنها شقائق النعمان:

فتباركت تلك الدماءُ على الثرى
مسفوحةً تسقي رباً وطلولا
وتقدّستْ أجسادُكُمْ منثورةً
نثرَ الشقائقِ رقةً ونحولا

لقد تتلمذ عدنان مردم بك على والده فتأثر به، وسار على نهجه في الوصف والعناية بالتصوير،

فلا غرو أن يستعير أحياناً بعض صوره وأخيلتـه، وقد مر بنا كيف شبه الشهداء المعلقين، وقد التوت أعناقهم، بقطيع عطشان ورد الماء ليشرب:

ومشــــرئبين بالأعنـــاقِ تحْسَــبُهُمْ
وِرْداً مـــن الهـيمِ نحـوَ المـاءِ قـد وردا

فاستخدم عدنان هذه الصورة بقالبٍ آخر قائلاً:

وأتيـــتمُ وِرْدَ المنيـــةِ ظُلعـــا
تتزاحمـــون مناكبـــاً وتلــيلا
وكـــأنكم هـيمٌ عطـــاشٌ تبتغـــي
وِرْداً لتطفـــئَ حرقـــةً وغلـــيلا

والفرق بينهما أن الأب أوجز فجمع الصورة في بيت واحد، وأسهب الابن فجعلها في بيتين، ولا شك في أن التوفيق قد حالف كلاً منهما صياغة، وألفاظا، وحسن سبك.

ويتساءل الشاعر بدهشة كيف يتسابق الشهداء إلى شرب كأس المنية، بلا مبالاة، ويقسم أن تلك الشجاعة قد جاوزت حدود المعقول:

شـــهداءَ جلـــق مـــا أجـــلَّ نضـــالَكُمْ
حـــينَ انبـــريتم فتيـــةً وكهـــولا
عجبـــاً أفـــي وِرْدِ المنـــونِ تـــزاحُمٌ
هـــذا لَعَمْـــرُكَ جـــاوز المعقـــولا

ويعلل السبب الذي دفع الشهداء إلى مناوأة الأتراك والثورة عليهم، فيجده في رفضهم حياة الذل والعبودية والاستسلام، وضيقهم بالقهر والعيش المرذول، ولذلك ثاروا تلك الثورة الجامحة العمياء، التي خفقت لها قلوب الطغاة خوفاً وهلعاً:

أنفـــت نفوسُـــكمُ الركـــونَ علـــى الأذى
واســـتنكرت عيشـــاً لكـــم مـــرذولا
فبعثتموهـــا صـــيحةً خفقـــت لهـــا
كبـــدُ الطغـــاةِ مـــن الوجيـــبِ طـــويلا

ألا ما كان أكرمهم قادة عبدوا طريق الشهادة حين فرشوه بجثثهم، وتقبلوا الموت بطيبة خاطر:

أكـــرمْ بكـــم يـــومَ الكريهـــةِ قائـــدا
وِرْدَ المنيـــةِ طائعـــاً وبســـيلا

ويختم قصيدته بحكمة خالدة، هي أن على كل من أراد أن يحيا حياة حرة كريمة، أن يعد لها السيف، فالمسافة بين الكرامة والذل خطوة واحدة، من اجتازها عاش عزيز النفس، مرهوب الجانب، سيداً:

قـــل للـــذي يبغـــي حيـــاةً حـــرةً
هـــلاّ جلـــوتَ الصـــارمَ المصـــقولا؟
بـــين الكرامـــةِ والمذلـــةِ خطـــوةٌ
إن تَخْطُهَـــا تعـــش الحيـــاةَ نبـــيلا

-٦-

لكن الشاعر سليم الزركلي، الذي لم يترك حادثة من حوادث الوطن إلا نظم فيها، قد خص الشهداء بقصيدة طويلة عنوانها ""شهداء أيار""، ألقيت في حفلة النادي الأهلي بدمشق، عام ١٩٤٦ ـ وكانت سورية مغمورة بفرحة جلاء الفرنسيين عن أراضيها ـ فلنسمعه يحييهم ويُثني على وفائهم الخالص للأوطان، وأمجاد العروبة الخالدة:

أقوافـــلَ الشـــهداءِ مـــاذا
فـــي ســـمائكِ مـــن جديـــدْ؟
كنـــتِ المنـــائرَ فـــي الوفـــاءِ الـــ
ـــمحضِ للمجـــدِ التليـــدْ
تيهـــي عـــلاً فالـــدهرُ غيـــ
ـــرُ الـــدهرِ فـــي شـــرِ العهـــودْ
قـــد كنـــتِ تبكـــينَ العـــلا
أســـفاً علـــى وطـــنٍ شـــهيدْ
وتناشـــدين المجـــدَ يحـــ
ـــطمُ كـــلَّ جبـــارٍ عنيـــدْ

وبعد أن يسهب في التغني ببطولات صلاح الدين في حطين، ويقف وقفة طويلة عند فلسطين الجريحة، يعود ليخاطب الشهداء ويبين أنهم عيون المجد في الأيام الحالكة المظلمة، وأنهم صدى الماضي العريق، ورفة الأمل الوضاء، للشعوب العربية المطعونة... فليناموا إذن فرحين سعيدين في عليا الجنان، بعد أن جنت البلاد ثمار تضحياتهم، وسارت بالمشاعل التي أوقدوها:

شهداءَ يعرب يا عيونَ المجـ
ـدِ في الحَلَكِ الشديدْ
أنتم صدى الماضي البعيـ
ـدِ ورفةُ الأملِ العتيدْ
قروا بما جنتِ العلا
عيناً وفي خُلْدٍ مديدْ

-٧-

إلا أن وصف الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير)، وكان في جملة من حكم عليهم بالموت فنجا، لا يكاد يعادله وصف، إذ تستحيل الصورة عنده لوحة ناطقة، يعجز عن رسمها أي فنان ماهر مبدع، فالشهيد منهم شعاع من نبي، وكتلة من لهب، ولواء من هدى، تسقي دماؤه الأرض حتى الارتواء:

كتلةٌ من لَهَبِ
في سماءِ العربِ
ولواءٌ من هدىً
وشعاعٌ من نبي
يا شهيداً دمُهُ
قال يا أرضُ اشربي
أنتِ إن لم ترتوي
من دمِ الحرِ الأبي
ذلَّ فيكِ العربي
واستبدَّ الأجنبي

-٨-

لم يستطع الشعراء بكاء الشهداء كما كانوا يريدون، فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وخرجت سورية والعراق والحجاز من المنطقة العثمانية، عادوا إلى ذكريات شهدائهم، وصاروا يعددون مآثرهم، وقد رفعوهم إلى مصاف الأبطال وافتنّوا في تمجيدهم وتقديس أهدافهم، كما فعل الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي في قصيدته ""النائحة"" التي جاءت في مئة وستين بيتاً تقريباً، حتى أطلق عليها الأستاذ أنيس الخوري المقدسي(١) اسم ""معلقة الشهداء""، وهو يصف فيها المشانق، وقبور القتلى في كل من بيروت ودمشق، ويعدد أسماء الشهداء، باكياً شبابهم الغض، طالباً الثأر لهم:

على كلِ عودٍ صاحبٌ وخليلُ
وفي كلِ بيتٍ رنةٌ وعويلُ
وفي كلِ عينٍ عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ
وفي كلِ صدرٍ أنةٌ وغليلُ

أما شجاعتهم، وهم يقبلون على الموت بجرأة واندفاع، متخذين من حميتهم سلماً يرقون به إلى حبال المشانق، فأمر لا بد أن يقف عنده المرء وقفة دهشة وإكبار وإجلال:

علاها وما غيرُ الحميةِ سُلَّمٌ
""شبابٌ تسامى للعلا وكهولٌ""
لقد ركبوا كورَ المطايا يحثهمْ
إلى الموتِ من وادي الحياةِ رحيلُ

والشهداء في طليعة رجال الأمة: خلقاً، وفضلاً، وعلماً، وذكاءً، ونبلا. أناس متحمسون، مخلصون لقوميتهم وقضيتهم، سعوا إلى إنقاذ أمتهم وتحريرها من قبضة المستبدين:

رجالٌ عليهمْ من سنا الفضلِ رونقٌ
وللمجدِ فيهم غرةٌ وحجولُ

---

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ج١، ص١٠٩.

مَشَوْا في سبيلِ المجدِ يحدوهُمُ الردى
وللحقِ بين الصالحينَ سبيلُ

وما هي إلا ثوان، حتى قضي الأمر، وفاضت أرواح الشهداء إلى بارئها راضية مرضية، فاستقبلتها ملائكة الجنة بالترحيب، وسطعت نجوم السماء لتهديها سواء السبيل:

قبورٌ ببيروتٍ وأخرى بجلّقٍ
تُجَرُّ عليها للرياحِ ذيولُ
سرتْ روحُهُمْ تطوي السماءَ لربها
وما غيرُ ضوءِ الفرقدينِ دليلُ

ثم ينتفض غضباً، ويعلن سخطه على الاتحاديين المتعصبين الجناة، ويهددهم بأن العرب سيردون الصاع صاعين، وسينتقمون شر انتقام لهذه الدماء الزكية التي سفكت ظلما وغدراً:

ولن تسكتَ الأيامُ عن عصبةٍ جَنَوا
ولكنْ بما كالوا لهم سنكيلُ
وقد سلبوا حريةَ الناسِ مذ عَتَوْا
وتلكَ مرادٌ للحياةِ وسُوْلُ
وصبوا دماءً من شعوبٍ بريئةٍ
فإخضلَّ وهداتٌ بها وتلولُ

لقد كان الزهاوي صريحاً جداً، وجريئاً إلى أبعد حدود الجرأة في مرثيته، حتى إنه لم يتورع عن قذف جمال باشا بأبشع النعوت، وأحط الصفات، فهو قد سمي جمالا خطأ، ولو أنصفوه لسموه قبيحاً، ويدعوه إلى أن يكبح جماح غروره، ويضع حداً لصلفه وتيهه، فالدهر قلب، والأيام دُوَل، ومجد العرب باقٍ مهما حاول أن يحط منه:

جمالُ لأنتَ القبحُ سموكَ ضده
وثوبك إذ أرفلتَ فيه ذليلُ
تريد لمجد العربِ فيما أتيته
زوالا ومجدُ العربِ ليس يزول

وتضربه بالسيفِ تطلبُ قَطْعَهُ
فيرتدُّ عنه السيفُ وهو كليلُ
رويدَكَ لا تغترَّ بالدهرِ إن صفا
ولا تأمنِ الأيامَ فهي تدول

وأية جرأة أبلغ من اتهامه إياه بالقبح والدنس، وولادته من أم قد توارثت العمى أبا عن جد، وتسفيه العمل الذميم الذي اقدم عليه، فلبسه العار الذي لن يفارقه مدى الدهر، وستظل أدرانه عالقة به مهما غسلت:

فِعالكَ لا يأتيهِ من كان عنده
حصاةٌ وفي تلك الحصاةِ صمولُ
لقد جئتَ أمراً يا جمالُ مذمَّماً
وأنفذتَ رأياً لا يزالُ يَفيل
فما قبحُ ذاكَ القتلِ عنكَ بزائلٍ
ولا دَنَسُ الاحلاءِ منك غسيل
ولا تتعرضْ يا ابن موروثةِ العمى
لمجدِ بني عدنانَ فهو أثيل

ويحذره من صولة العرب، فهم كالجبال الشم، والصخور الصلبة التي لا تؤثر فيها معاوله مهما كانت حادة، فالعرب لن يكونوا غير العرب، والجبال العالية لن تكون سهولاً أبداً:

وراءَكَ لا تقربْ رواسيَ يعربٍ
فقربُ رواسيها عليكَ وبيل
تأنَّ ولا تَعْجَلْ فما العربُ غيرهم
ولا الشم من وعرِ الجبالِ سهول

ومن العراق أيضاً يرتفع صوت الشاعر محمد رضا الشبيبي منبهاً إلى سوء إدارة الأتراك، وفساد حكمهم، وانتشار المظالم والتعديات، واعتقال الكثيرين من أبناء

البلاد، وزجهم في السجون والمعتقلات، ثم توجوا هذه المقابح كلها بتعليق أحرار البلاد على أعواد المشانق:

أيــن الــرهينُ بــأموالٍ لنــا ذهَبَــتْ
ومــن يقيــد بــإخوانٍ لنــا قتلــوا
إمّــا شــهيدٌ فيُعلــى فــوق شــاهقة
أو موثــقٌ بحبــالِ الأســرِ معتقــل

-١٠-

وإذا جاز لنا أن نلحق الشعر المنثور بالشعر الموزون، فلا بد لنا أن نعتبر الآنسة ماري عجمي ـ صاحبة مجلة العروس التي تأسست في دمشق عام ١٩١٠ـ في طليعة من وقفوا إلى جانب شهداء السادس من أيار، فزارت السجون والمعتقلات ووصفتها وصفاً دقيقاً، وهاجمت جمال باشا في أكثر من مقال، بعد أن رفض شفاعتها في العفو عن الشهيد بيترو باولي الذي كانت تربطها به عاطفة حب صادق، وعلاقة هوى صحيح ملك عليها كل جوارحها، فما إن وقعت الواقعة، ووريت تلك الأجساد الغضة بعيدة عن أعواد المشانق، حتى ثارت شجونها، وفاضت دموعها، فراحت تخاطبهم بهذا الكلام المؤثر:

أما تبرحون غارقين في سباتكم أيها النائمون؟
أما تعبت أجنابُكُمْ، وملت من اللصوقِ بالرمال؟
قوموا، فقد نمتُمْ نوماً طويلاً
إن نفحاتِ الربيع تملأ الفضاء
والأطيارَ تتسابق على الأفنان
والجداولَ تناديكم: ""أن هيّا عودوا إلينا""
لقد كفى القلوب وجداً وأنينا
لا نستطيع أن نرحبَ بالربيعِ وأنتم بعيدون عنا
ولا يطيب لنا فوحُ الأزهارِ، وفي الأدواحِ نفحاتُ دمائكم البرئية.
عودوا، فقد عادتِ الورودُ الحمراءُ إلى مآقينا.

-١١-

فإذا انتقلنا إلى المهجر، لمسنا الإحساس بهول الفاجعة عند القروي، والياس فرحات، وأبي الفضل الوليد، ويوسف عساف وسواهم ممن استطاعوا أن يعبروا عن مشاعرهم بصدق وصراحة، لأنهم كانوا بعيدين عن مسرح الأحداث، ينعمون بقسط وافر من الحرية والأمن، ولا يخشون أن تمتد إليهم يد آثمة، أو سلطة جائرة، فتقتص منهم شر اقتصاص. يقول القروي في مستهل قصيدته:

خيــرُ المطــالعِ تَسْــليمٌ علــى الشــهدا
أزكــى الصــلاةِ علــى أرواحِهــم أبــدا
فلتــنحنِ الهــامُ إجــلالاً وتكرمــةً
لكــلِ حــرٍ عــن الأوطــانِ مــات فــدا

ثم يخاطب الشهداء الذين علقتهم على أعواد المشانق يد جمال باشا الملطخة بدماء الجريمة، ويبين أن هذه الأعواد وحبالها قد اكتسبت منهم القداسة والطهر، حتى صار كل شهيد يسجد شكرا لله على هذه الميتة الشريفة:

قــد علقــتكم يــدُ الجــاني ملطخــةً
فقدّســت بِكُــمُ الأعــوادَ والمَســدَا
حتــى غــدا كــلُ حــرٍ لــو نصبتَ لــه
حبــلَ المنــونِ علــى هُدّابــهِ ســجدا

ويؤكد أن إعدام الشهداء قد لمّ شمل العرب، ووحد كلمتهم، وألف بينهم، حتى غدا حبل المشنقة رباطاً يشد قلوبهم بعضها إلى بعض، وعقدته عروة توحد معتقداتهم. وهو لم ينظر إلى الشهداء نظرته إلى أجساد تتدلى متراخية، بل إلى أوسمة علقت بصدر الأفق، فراحت نجوم السماء تغار منها وتحسدها على طلعتها البهية، وإشراقتها الوضاءة:

بــل علقــوكم بصــدرِ الأفــقِ أوســمةً
منهــا الثريــا تلظّــى صــدرُهَا حســدا
أكــرمْ بحبــلٍ غــدا للعــربِ رابطــةً
وعقــدةٍ وَحَّــدَتْ للعُــرْبِ معتقــدا

ويلتفت إلى شباب الأمة العربية، أمل الغد، وبسمة المستقبل، وسندها القوي، فيستحلفهم

بدماء الشهداء البريئة أن يثأروا من الأتراك الذين ارتكبوا هذه الحماقة الدامية:

وأنــتمْ يــا شبابَ العربِ يــا سنداً
لأمــةٍ لا تــرى فــي غيــركمْ سـندا
ناشــــدتكم بـــدماءِ الأبريـــاءِ ألا
لا تُهْــدَرَنَ دمــاءُ الأبريـــاءِ سُـدَى

ويسترسل متغنياً بهمة الشبان العرب، وشجاعتهم في الحرب، وكيف أنهم لا يستكثرون عدد الأعداء ولا عددهم في الوغى، فما أروعهم وهم يتقدون حماسة واندفاعا، ويخوضون غمار الموت مبتردين بنار حياضه:

تلــكَ الجبــابرة الأبطــالُ مــا ولــدتْ
للحــربِ أمثــالُهُمْ أمٌ ولــن تَلِــدا
إن صاحبوا السيفَ لـم يستكثروا عـدداً
يـوم النــزالِ ولــم يســتعظموا عُـدَدَا
للهِ أروعُهُـــمْ كالنـــارِ متقـــداً
يبغـي حياضَ الـردى بالنـارِ مبتـردا

وأية شجاعة كشجاعتهم النادرة، يقبّل الواحد منهم جرحه معتزاً فخوراً، ولولا طمعه بأن يجرح مرة ثانية، لما تمنى تضميده:

يقبّــلُ الجــرحَ لــو لــم يُغْــرِهِ طَمَــعٌ
بغيـــرهِ مـــا تمنـــى أنـــه ضُـــمِدَا

وينتهي إلى رسم هذه اللوحة الرائعة البديعة، إذ يشبه الجرح بفم المجد مبتسماً، ونصل السيف بلسان راح يلهج بآيات الشكر والثناء على شجاعة أولئك الشبان الأبطال فيقول:

كأنمــا الجــرحُ ثغــرُ المجــدِ مبتســما
والنصــلُ فيــه لســانٌ بالثنــاءِ شـدا

-١٢-

أما الشاعر الياس طعمه، أو (أبو الفضل الوليد) كما كان يسمي نفسه، فقد ثارت ثائرته على هذه الجريمة النكراء وراح يصرخ بملء صوته من وراء البحار مقرعاً، منددا، منذرا، متوعداً، يغلي كالمرجل قائلا:

بــلادَ الشــامِ غــادرك الكــرامُ
فعــيش الحــرِ فيــكِ إذنْ حــرام
لقــد كثــرت مــن العــربِ الضــحايا
ولــم يهتَــزَّ فــي الغِمْــدِ الحُسَــامُ

ولا يفوته أن يشير بصراحة إلى أولئك السفاكين الذين لا ذمة لهم ولا عهد، بل يستحقون الذم، ويحض العرب على الثورة ضد الأتراك العلوج، الذين يعتبرون محبة الأوطان جرماً أي جرم:

وحتــامَ المخافــةُ مــن علــوجٍ
لهــم ذَمٌّ ولــيس لهــم ذِمَــامُ؟
يَــرَوْنَ محبــةَ الأوطــانِ جرمــاً
بــه تهــوي مــن الأحــرارِ هــامُ
لقــد قتلــوا العواطــفَ والمزايــا
ففــي أحشــائِنَا منهــا سِــهَامُ
أنبقــى ســاكتينَ بــلا حــراكٍ
وللثــوراتِ حولَيْنَــا ضــرامْ؟

إلى أن يخاطب الشهداء واصفاً شجاعتهم الخارقة، وإقدامهم الرائع، وكيف هجموا على الموت بخطى ثابتة، وقلوب مطمئنة، وثغور باسمة، يهتفون بحياة العرب ونصرهم، حتى حيرت بسالتهم العقول، وأدهشت الألباب:

أيــا صــحبي الكــرامَ ألا فــداكمْ
لئــامٌ بعــدما قــلَّ الكــرامُ
مشــيتم باســلينَ إلــى المنايــا
وكــان لكــم علــى النُطْــعِ ابتســامُ
ليحــي العــربُ قــد صِــحتُمْ ومُــتُّمْ
فصــيحتُكُمْ لخطــتكمْ دوامُ
فــنحن لــدى بســالَتِكمْ حيــارى
وأنــتمْ فــوقَ ذُلَتِنَــا عظــامُ

والشهداء عند أبي الفضل الوليد منارات تهدي الناس سواء السبيل، وعند القروي نجوم زهر تضيء الدروب أمام الشعب الضليل، فالمعنى واحد تقريباً، ولا غرو أن تتكرر المعاني ما دام الموضوع المعالج واحداً، يقول القروي:

يا أنجمَ الوطنِ الزهرَ التي سَطعَتْ
في جو لبنانَ للشعبِ الضليلِ هدى

ويقول أبو الفضل الوليد:

على أعوادِ مرقيةٍ رُفِعْتُم
منارات بها يُهْدَى الأنامُ
وكنتم قدوةً للشعبِ مُثْلَى
فهل يُرْجى له يوماً قيام؟

ويختم قصيدته بهذه الحكمة، وهي أن حياة الشعوب لا تكون إلا بالضحايا التي تحررها من ربقة الذل والعبودية، وهو نفس المعنى الذي أتى به أحمد شوقي في قصيدته ""نكبة دمشق"":

يقول أبو الفضل الوليد:

ورب ضحيةٍ أحيتْ شعوباً
فكان لها انعتاقٌ واقتحامُ

ويقول أحمد شوقي:

ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ
وفي الأسرى فدىً لهم وعِتْقُ

هذا، ولأبي الفضل الوليد قصائد أخرى على هذا النسق، كقصيدته ""صدى الأجيال""، و""الصرخة الكبرى""، و""الدولة العربية"" ضمها جميعاً ديوانه (أنفاس ملتهبة).

-١٣-

وهذا هو الشاعر المهجري يوسف عساف، يذكر قومه العرب بمظالم الأتراك، وبالمشانق التي نصبوها هنا وهناك، حتى وهت أمراسها من كثرة الضحايا، وبالسجون التي اشتكت جدرانها من كثرة ما عذب الأحرار داخلها وأزهقت أرواحهم، وبذلك العدد الكبير ممن صرعوا، أو أبعدوا، أو شردوا، أو جوّعوا حتى الموت:

للترك فيكم كلَّ يومٍ وثبةٌ
يُردى الذكورُ بها ويُسْبَى المرهَقُ
كم جندلوا من قومكمْ كم أبعدوا
من أهلِكُمْ، كم جوَّعوا، كم أرْهَقُوا؟
تلكَ المشانقُ قد وَهَتْ أمراسُهَا
مما يناطُ بها، ومما يُشْنَقُ
تلكَ السجونُ قد اشتكتْ جدرانُهَا
مما يُسَاطُ بها ومما يُزْهَقُ

-١٤-

كما أشار الشاعر الحمصي نسيب عريضة إلى شهداء السادس من أيار في قصيدته ""الشعب الذي لا يفيق"" بقوله:

هتكُ عرضٍ
نهبُ أرضٍ
شنقُ بعضٍ
لم تحرك غضبَهْ
فلماذا نذرفُ الدمعَ جزافاً؟
ليس تحيا الحَطَبَهْ.

ونقف وقفة أخيرة عند الشاعر جورج أطلس الذي رثى مواطنه الشهيد عبد الحميد الزهراوي، فأشار إلى دعوته إلى الوحدة الوطنية، ونبذ التفرقة، وراح يستغرب كيف لم يهبّ دعاة الوحدة العثمانية لنصرة شيخ مسلم جليل، ولم يعمدوا إلى قطع ذلك الحبل الذي أوثقوا به عنقه:

عبدَ الحميدِ أخي، ما كنتُ منتظراً
أن السماءَ بهذا الجَوْرِ تبلونا
تبكيكَ حمصُ وما تحويهِ من نُزَهٍ
يبكيكَ ""مِيْماسُنا""، يبكيكَ ""عاصينا""
يبكيكَ من سمعوا صوتاً جَهَرْتَ به
ضدَّ التفرقِ فانبثَّ الإخا فينا
أين الألى طالما باهَوْا بشِدَّتِهِم
وطالما احتقروا من خالفَ الدينا
لِمْ لَمْ يذودوا ولِمْ لَمْ يقطعوا قَرَنَاً
شدّ الطغاةُ إليه زينَ وادينا




لون عينيك..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

أيُّ نهــــرٍ في رُبــــى عيـــــــ
ــــــنيكَ يجــــري أيُّ كــــوثَر
أيُّ نـــــورٍ فيهمـــــا يبـــــــ
ــــــدو لعــــيني فـــأبهَر
أيُّ نـــــارٍ فيهمـــــا تجــــــ
ــــعَلُ قلــــبي يتبخَّــــر
ايُّ كـــأسٍ فيهِمـــا تنـــــ
ــــساب في روحـــــي فأســـكَر
أيُّ ســـهمٍ فيهمـــا يجـــــ
ـــعَلُ كـــبري يتكسَّـــر
أيُّ لـــــونٍ يتجلَّـــــى
فيهمــــا اللهُ أكبَـــــر
أيُّ فِكـــرٍ فيهمـــا غـــا
مَ علـــى الفِكــــرِ وحيَّـــر
كُلَّمـــا قاوَمتُـــهُ ألــــــ
ــــفَيتُ خطـــوي يتعَثَّـــر
وإذا أزمُعـــتُ هِجـــــرا
نــــكَ أدنـــو مِنـــكَ أكثَـــر








كيـــفَ آمنـــتُ بمَـــن يعـــ
ـــــبَثُ بالحُـــبِّ ويَكفُـــر
آهِ مـــن ليلــي ومـــن ويــ
ـــلي ومِـــن هـــذا المُقَــدَّر
يَطلُـــعُ البَـــدرُ علـــى الأنــ
ـــجُمِ في الليلـــيِ ويَســـهَر
ويُواليهـــا بنـــورِ الـــ
ـــشوقِ حتّـــى تتبلـــور
أيٌّ ســـحرٍ يجـــذب البـــد
رَ إليهـــا حـــينَ تَخطُـــر
أتُراهـــا كحَّلـــت بالـــ
ـــلَيلِ جفنيهـــا لتَســـحَر
أنـــا مَـــن كحَّلـــني السُهـــ
ـــدُ وبـــدري لـــيسَ يَشـــعُر
ليـــتني في ليـــلِ بـــدري
نجمـــةٌ في الأفـــقِ تظهَـــر
علَّهـــا تلقـــى شُـــعاعاً
بســـناهُ تتنـــوَّر
وتـــرى الحُلـــمَ يقينـــاً
وتـــرى العـــالمَ أخضـــر
أُخـــتَ روحـــي عـــن هـــواهُ الـــ
ـــمُفتدى لا تســـأليني
هـــو حُـــبٌّ مـــا لَـــهُ في
أيِّ قلـــبٍ مِـــن قَـــرينِ








مـــا رواهُ الـــدّهرُ في مـــا
ضـــي ولا آتـــي السِـــنينِ
هـــو لحـــنٌ شـــاعريٌّ الـــ
ـــجَرسِ خفَّـــاقُ الـــرَنينِ
هـــو نـــورٌ يســـكُبُ الفـــر
حـــةَ في قلـــبِ الحـــزينِ
هُـــوَ رَوضٌ عـــاطِرُ السَـــو
سَـــنِ زاهـــي الياسَـــمينِ
هُـــوَ نيســـانٌ لِعُمـــري
وربيـــعٌ يـــزدهيني
هُـــوَ بـــدرٌ في دُجـــى ليـــ
ـــلي وتـــاجٌ في جبـــيني
فـــإذا غـــابَ حبـــيبي
أيُّ ظـــلٍ يحتـــويني
مـــن سيُرســـي دُرَرُ التـــا
جِ علـــى هـــذا الجـــبينِ
مَـــن ســـيمحو لهَـــبُ الحُـــر
قـــةِ مِـــن دَمعـــي الســـخينِ
مَـــن ســـيهديني إلى المَـــر
فـــأِ إن ضـــلّ ســـفيني
مـــن علـــى الأيـــامِ ذُخـــري
ونصـــيري ومُعـــيني
مـــن أرانـــي حينمـــا ألـــ
ـــقاهُ في حصـــنٍ حَصـــينِ




الترجمة أداة التبادل الثقافي والعلمي بين الأمم

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

مارس الإنسان اللغة بشكل فطري دون محاولة لسبر غورها، أو معرفة كنهها، وكذلك مارس الترجمة بشكل تلقائي منذ القديم، ويوجد شواهد موغلة في القدم تدل على ذلك، ومع ذلك فإن دراسات الترجمة لم تتطور بشكل علمي إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين.

الترجمة ممارسة أزلية:

الترجمة بشقيها الشفوي والتحريري قديمة قدم الحضارات واللغات نفسها، والشواهد على قدم ممارستها ماثلة للعيان في متاحف العالم اليوم، ومنها رسائل تل العمارنة التي تعود للقرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهي مكتوبة باللغتين الأكادية والمصرية القديمة، وحجر رشيد الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد كتبت عليه ترجمات باللغات الهيروغليفية واليونانية والديموطية المصرية القديمة، وقد ورد أن الشعب المصري كان مقسماً إلى سبع فئات، ومنها فئة المترجمين، والشاهد على ذلك آلاف البرديات المترجمة من الهيروغليفية إلى اليونانية القديمة، وهي معروضة في المتحف البريطاني وغيره من متاحف العالم اليوم، ويؤكد هذا دور وأهمية الترجمة لحضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة، كما يؤكد تبادل المعارف والخبرات والثقافات بين هذه الحضارات.

وقد ذكر د. محمد العيد اللطيف في كتابه (الترجمة رؤية في الواقع العربي) أن (ميلان ديميتش) يذكر أن ربع الألواح تقريبا التي وجدت في مكتبة نينوى الملكية، كانت على هيئة قواميس وكتب قواعد للغات السومرية والبابلية، والآشورية، مما يؤكد على أهمية الترجمة في ذلك الوقت لتلك الحضارات، ويؤكد (ميلان) أن معظم الثقافات العالمية مارست الترجمة لمسببات ثقافية أو تجارية أو حربية.

كما عرفت الترجمة عند كثير من الأمم الأخرى، مثل الصين واليابان، فقد كان يوجد في بلاط الحكومة الصينية في القرن الحادي عشر الميلادي وظيفة رسمية للمترجم الفوري، كما كان المترجمون يخضعون لتدريب قبل استلامهم لوظيفتهم وقد يمتد أحياناً إلى سبع سنوات.

مدارس الترجمة عند العرب والمسلمين:

يؤكد الباحثون والمؤرخون أن الترجمة عند العرب والمسلمين قد مرت بمرحلتين، مرحلة البداية وكانت في العصر الأموي، ومرحلة النضج والتوسع وكانت في العصر العباسي، ففي البداية تشير المصادر إلى أن خالد بن يزيد الأموي كان متجهاً نحو العلم، فدرس الكيمياء على مريانوس الاسكندراني، وأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونان وطلب منهم ترجمة كتب الكيمياء إلى العربية، وقد أتقن خالد الكيمياء والطب والفقه والأدب والشعر، وترك عدة رسائل من تأليفه في هذه العلوم، وفي أيام عبد الملك بن مروان تم ترجمة دواوين الدولة إلى العربية، وفي عهد عمر بن عبد العزيز ترجم ماسرجويه رسالة أهرن في الطب، وكانت الترجمة في هذه المرحلة فردية، واقتصرت على بعض الكتب ذات المنفعة المباشرة، ولم تتدخل الدولة بعد في هذه الشؤون.

هذه المرحلة لم يذكرها د. العبد اللطيف في دراسته، إنما بدأ مباشرة ببيت الحكمة الذي أنشأه هارون الرشيد، ولكن زيادة في الإيضاح أذكر مدارس الترجمة التي كانت موجودة قبل الإسلام والتي استمر بعضها بالترجمة والتعليم، إلى ما بعد الإسلام، فقد تعلم في بعضها بعض العرب في العصر الجاهلي، فالحارث بن كَلَدَة وابنه النضر قد تعلما الطب في مدرسة جند يسابور الفارسية، وعرف الشرق مدارس الترجمة منذ أيام الإسكندر المقدوني خاصة في سورية ومصر والعراق وفارس، فمدرسة الإسكندرية قصدها الفلاسفة والعلماء والأطباء، ولما جاء البطالسة أسسوا فيها المدارس والمكتبة الضخمة، وقد تتلمذ فيها كثير من الفلاسفة والمفكرين أمثال بطليموس وإقليدس وأرخميدس، وعن طريقها تعرف العرب فيما بعد إلى فلسفة اليونان كما أخذوا عنها الفلسفة الإشراقية، أما مدرسة الرُّها شمالي العراق، فقد نقل أساتذتها بعض كتب أرسطو من اليونانية إلى السريانية، ومدرسة نصيبين التي استمرت مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي، وبفضلها انتشرت الثقافة اليونانية في بلاد فارس، وأما مدرسة جنديسايور التي تحولت في عهد كسرى أنو شروان إلى مدرسة للطب والفلسفة، كان التدريس فيها باللغة السريانية وقد بقيت مزدهرة حتى العصر العباسي، ومدرسة قنسرين التي كانت على شاطئ الفرات تجاه جرابلس ازدهرت حتى أواخر القرن السابع الميلادي، وتعد من أهم المراكز الثقافية التي درست الثقافة اليونانية، كما تم فيها ترجمة الآثار اليونانية إلى السريانية، كذلك مدرسة أنطاكية التي ترجمت الثقافة الأفلاطونية إلى السريانية كما اشتهرت بمكتبتها الكبيرة.

في هذه المدارس قام السريان بنقل الثقافة اليونانية إلى السريانية وحفظوها، ولما فتح العرب بلاد الفرس والروم، تطلعوا إلى العلوم فاستعانوا بالسريان ليترجموا إما عن اليونانية إلى العربية مباشرة، وإما من اليونانية إلى السريانية، ومنها إلى العربية، وذلك لما تمتع به السريان من ثقافة يونانية واسعة وبفضل إتقانهم للغات الثلاث السريانية واليونانية والعربية.

وبعد أن أنشأ الرشيد بيت الحكمة والذي شهد رعاية عالية ودعماً كبيراً في عهد المأمون، صار مدرسة تعنى بالبحث والتأليف والترجمة، ويذكر التاريخ أن المأمون كان يرسل مبعوثيه الذين يثق بهم إلى بلدان الشرق الأوسط لكي يبحثوا عن المخطوطات اليونانية القديمة، ويذكر أنه أرسل وفداً إلى الإمبراطور البيزنطي ليون الخامس لكي يطلب منه بعض المخطوطات اليونانية، وقد جاء الوفد من القسطنطينية بكتب كثيرة تشمل مختلف العلوم، مما دفع المأمون أن يطلب ترجمتها فوراً إلى العربية، وتذكر بعض المصادر أن مكتبة بيت الحكمة جمعت في عهد المأمون مليون مخطوطة، وقد تابع من جاء بعده دعمه لبيت الحكمة، حتى صارت المكتبة تجمع كنزاً هائلاً، لكنها انتهت حيث أحرقت على يد التتار بعد ذلك.

وذكر د. العبد اللطيف في دراسته أن كثيراً من كتب المنطق والفلسفة اليونانية قد ترجمت إلى السريانية ثم إلى العربية، وكان المترجمون في ذلك العصر معظمهم من النساطرة المسيحيين الشاميين، ثم يقول: "وعرفت مدرسة ثانية للترجمة كانت قد أدت دوراً رائداً في الترجمة، وهي مدرسة طليطلة للترجمة، والتي تأسست في القرن الثاني عشر الميلادي، والتي تدرب فيها كثير من الإسبان والأوربيين، كما تدرب فيها اليهود والمسيحيون إلى جانب المسلمين، وأمها الدارسون من الألمان والإنكليز، فدرسوا فيها وترجموا من العربية إلى اللاتينية، وإلى اليوم يوجد في مكتبات طليطلة

مخطوطات مترجمة من العربية، ومن بينها ترجمات لشروح ابن رشد لفلسفة أفلاطون، وكتب لابن سينا في الطب، والحسن بن الهيثم في البصريات، ومئات المخطوطات العربية التي لم تحقق ولم تطبع حتى اليوم، وكما حفظ العرب (كما يقال) تراث اليونان، حفظ الأوربيون تراث العرب.

إشكاليات في الترجمة:

ثم تحدث د. العبد اللطيف عن ثلاثة إشكاليات في الترجمة، وأكد أن العرب والمسلمين أدركوا في عهد مبكر صعوبة وتعقيد الترجمة، فقد كان الجاحظ والسيرافي وأمثالهما يهزؤون بمن يترجم حرفياً مثل يوضا البطريق وابن الناعمة الحمصي وحتى بن يونس وممن جاءت ترجمته مثل ترجمتهم، فقد التزم هؤلاء بحرفية النص اليوناني عندما ترجموا أرسطو، وكل هذا دفع حنين بن اسحق لتحديد الأسلوب الأمثل للترجمة، وهو أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقه من حيث المعنى، سواء ساوت الألفاظ أم خالفها، أي أنه اعتمد في ترجمته على المحتوى دون الشكل، بعد أن فطن إلى صعوبة فهم التراجم التي تنتهج الأسلوب الحرفي.

وقد أكد الجاحظ في كتاب الحيوان أنه لا بد للترجمان من أن يكون في الترجمة نفسها، وفي وزن علمه في المعرفة نفسها، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواءً وغاية، وحتى تكلم بلسانيين علماً أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليه، وقال أيضاً: "إن الشر لا يُستطاع ترجمته".

وكلام الجاحظ هذا ينطوي على ملاحظة عميقة حول الترجمة عموماً، وترجمة الشعر خصوصاً، وهي محل جدل حتى هذه الأيام.

وقد شبه (جومن درايدن) الترجمة في القرن الثامن عشر بالرقص على حبال بأرجل موثقة، وذلك كناية عن صعوبتها وتأرجح المترجم ضرورة بين إحدى اللغتين، وكأن درايدن قرأ الجاحظ وأيده، أما (ايان ريتشارد) فقد وصف الترجمة في بداية خمسينيات القرن العشرين بأنها أكثر أنواع الممارسات التي أقدم الإنسان عليها تعقيداً منذ بدء الخليقة، وقد فهم كلامه هذا في ذلك الوقت على أنه نوع من المبالغة، غير أن كثيراً من **الباحثين ازدادوا** قناعة بهذه المبالغة الدالة بعد تطور الدراسات الفلسفية حول المعنى في الفلسفة، والمعنى في اللغة، وحول إمكانية الترادف اللفظي التام من عدمها، وحول قابلية اللغات للترجمة أصلها، وهو ما يسمى أحياناً امتناع الترجمة، فهناك فلاسفة للغة يرون استحالة الترجمة مثل (فالا رد كواين وهايدقر ولدفيق) في آخر أيامه، ولكل منهم أسابه الفلسفية الخاصة.

على أن (أيان ريتشارد) قد وضع إصبعه على المعضلة الأساس للترجمة، وهي قضية المعنى اللغوي، وألف مع (تشارلرز أوفدين) كتاباً من أهم الكتب في هذا المجال وعنوانه (معنى المعنى) عرضا فيه اثني عشر تعريفاً للفظة (معنى) برهنا فيه على استحالة معرفة ما تدل عليه هذه اللفظة بشكل دقيق.

وهنا يقول د. العبد اللطيف في كتابه الترجمة ولو عدنا لما قاله اسحق بن حنين من أنه يحصل معنى الجملة في ذهنه، وحاولنا أن نعرّف معنى لفظة (معنى الجملة) لأدركنا ما قصده (أيان ريتشارد) آنفاً، فما عقله اسحق بن حنين هو ماهية مازالت عصية على التحديد والتعريف بشكل دقيق، ومازالت قضية تحديد المعنى تؤرق الباحثين في مجال الترجمة.

أما الإشكالية الثانية التي تعرض لها الباحث ارتباط العقل والتفكير باللغة، فيستحيل كما يرى (فيتقنشتاين) أن نصف قضية تنطبق عليها عبارة ما في اللغة دون تكرار العبارة ذاتها، أما (إدموند هوسرل) فيرى أننا نستطيع بطريق الإدراك المباشر معرفة الشيء وتصوره، لأنه يمكن تصور ذلك الشيء بشكل صوري (فوتوغرافي) ولكن لا يمكن الاحتفاظ بصورته طويلا، واسترجاعه في العقل، وإعادة تصوره وحتى يمكننا الكلام عنه، أي حتى يأخذ شكلها لغوياً، وهو مادلل به (هوسرل) على أسبقية الإدراك على اللغة، ويصل د. العبد اللطيف إلى نتيجة حول هذه الإشكالية، وهي أنه في كل الأحوال ولمحدودية ذاكرتنا الفوتوغرافية، وصعوبة الإحتفاظ بجميع الصور لكل المواقف والحقائق، فنحن نجد أنفسنا أمام الصور اللغوية فقط، وعليه يمكن القول أن للغات خصوصية إدراكية تختزنها لغاتنا، ويقول:

"إن عدداً من الباحثين في مجال علم النفس المعرفي يرون ارتباطاً وثيقاً بين التفكير واللغة من

حيث أن اللغة فقط هي التي تمثل أمام العقل وتدخل في جميع عملياته، وهي أيضاً تحوي المخزون الأساسي للثقافة المتراكمة والمتوارثة عبر الأجيال، فاللغة هي أداة التفكير التي يستحيل حصولها من دونها، وهذا ما دفع بعض الباحثين للربط بشكل جدلي بين القدرة اللغوية للفرد وقدرته على التفكير.

ثم يعرض د. العبد اللطيف في درساته الإشكالية الثالثة للترجمة وهي ارتباطها بالثقافة، فيقول أبرزت هذه الإشكالية دراسات الإناسة، وخاصة دراسات الإناسة الإجتماعية، والإناسة اللسانية، ويؤكد أن هذه المعضلة برزت من طرفين في هذا المجال، أولهما علم الإناسة الوظيفي على يد باحثين مثل (أماواس ومالونسكس وفيرث) حيث احتج هؤلاء على الدراسات التقليدية في مجال الإنارة في أوربا (إداورد تيلور وجيمس فريزر) التي تعتمد على ترجمة عبارات الثقافات المدروسة عبر مترجمين ووسطاء إلى لغات الباحثين الأوربيين الذين لم يحتكموا بهذه الثقافات ولا يعرفون لغاتها، ثم اعتماد الترجمات بشكل تلقائي في دراساتهم، وفي إطلاق الأحكام على هذه الثقافات انطلاقاً من ثقافة الدارسين دونما اعتبار للسياقات الثقافية والوظيفية للغات الشعوب المدروسة، أو لوظائف اللغة الإجتماعية، فلكل لغة حسب رأيهم وظائف اجتماعية ونُظم خاصة لا يمكن سحب المعايير الأوربية عليها.

أما المجال الثاني فقد تمثل في تطور الدراسات الثقافية البنيوية التي أكدت على اعتباطية علاقة الدال بالمدلول في العلاقة الرمزية اللغوية، فقد نظر هؤلاء للغة على أنها كيان وسيط بين العالم الخارجي والإدراك الداخلي لهذا العالم في الثقافة أي أن الثقافة ليست إلا نموذجاً كما يبدو لأبنائها أنه حقيقة العالم الخارجي نموذجاً يتضمن مجموعة التصورات والإفتراضات الجمعية التي يتشربها أفراد الشفافة ويوارثونها، ويمكن بشكل مجازي النظر إلى اللغة على أنها في مجملها (دال) والثقافة برمتها على أنها (مدلول) في مفهوم (سوير) للعلاقة بين الدال والملول، والتي هي علاقة تلازم اعتباطية، ولذلك أكد بعض الباحثين مثل (إداورد سابير وبينجامين وورق) في فرضيتهم التي عرفت باسمها أحياناً، وبالحتمية اللغوية أحياناً أخرى، على استحالة الترجمة من ثقافة لأخرى، لأن اللغة هي التي تحكم نظرتنا للعالم، ونحن لا نستطيع رؤية العالم إلا من خلالها، ولكل لغة رؤية خاصة للعالم تحكم المتكلمين بها، وحسب نظرية (سابير - وورف) فنحن محكومون، أو بالأحرى منغلقون داخل إطارنا اللغوي، والثقافات المختلفة ليست صور مختلفة عن عالم واحد، بل هي في ذاتها عوالم مختلفة، أي أننا صوراً في عوالم مختلفة متباعدة تباعد لغاتنا.

ويتساءل د. العبد اللطيف في نهاية بحثه عن إشكاليات الترجمة عدة تساؤلات فيقول، إن ما سبق يطرح أكثر من تساؤل لدارسي الترجمة، فهل تتوقف الترجمة على اللغة فقط، أم تتجاوزها للثقافة ككل؟ ثم هل يمكن النظر للنصوص المترجمة على أنها نصوص ذات كيان مستقل يحمل المضمون ذاته في الثقافات المختلفة..؟؟ أهي جزء من واقع مشترك لجميع اللغات، أم هي تتبع لثقافات خاصة يصعب فصلها عنها، وقد يتغير مضمونها حسب السياقات الثقافية المختلفة؟

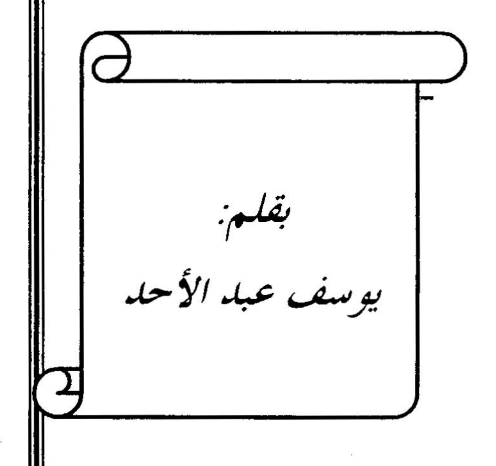
ثم يقرر أن معظم وجهات النظر حول الترجمة التي تنطلق من الدراسات الثقافية والأدبية، والأدبية المقارنة، تؤكد على الخصوصية الثقافية للنصوص، وعلى علاقة النصوص المترجمة بالثقافة بمجملها، بينما تميل بعض الدراسات اللسانية إلى حصرها بقدر الإمكان في النظم اللغوية، ولذلك ينظر للدراسات اللسانية في مجال الترجمة على أنها دراسات اختزالية في مجملها، تختزل النصوص إلى مجرد كيانات لغوية متباعدة، وتركز على التركيب اللغوي أكثر من السياق.

ويؤكد أن عدم ظهور نظرية متكاملة للترجمة بشكل عام يعود لعدم وجود نظرية متكاملة للغة، أو المعنى اللغوي، ولذلك تعددت وجهات النظر في الترجمة بتعدد النظريات والآراء اللغوية، وبتعدد وجهات النظر الفلسفية والثقافية، وبتعدد المجالات التي تأخذ الترجمة ضمن اهتماماتها.

وأخيراً إن الترجمة تعد أداة التبادل الثقافي والعلمي بين الأمم، مارستها الشعوب بشكل تلقائي منذ زمن قديم، وحديثاً تعد الترجمة ممارسة ونظرية على أنها جزء لا يتجزأ من الواقع الثقافي للأمم تخضع للعوامل التاريخية والإجتماعية والسياسية التي تمر بها المجتمعات، والعالم العربي ينظر للترجمة على أنها جزء من الحراك الثقافي العام للأمة العربية، لكن ما هو حال الترجمة اليوم في العالم العربي؟هذا السؤال له دراسة خاصة..!

الأديبة الدكتورة عزيزة مريدن

١٩٢٩ - ١٩٩٢



أديبة وناقدة متميزة وباحثة وأول أستاذة في جامعة دمشق ورائدة في دراساتها ومؤلفاتها القيمة لشعراء المهجر الجنوبي.

ولدت في دمشق عام ١٩٢٩ ونشأت في بيت علم وفضل وثقافة. تلقت دراستها الابتدائية والثانوية في مدارس دمشق وكانت معلمتها الأديبة ثريا الحافظ في الصفين الثالث والرابع الابتدائي.

بعد حصولها على الشهادة الثانوية انتسبت إلى دار المعلمات بدمشق لدراسة التربية وأصول التدريس لمدة سنتين، ثم انتسبت إلى جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية ونالت الليسانس في الآداب عام ١٩٥١.

مارست التدريس في ثانويات البنات الرسمية عدة سنوات ثم سافرت إلى مصر والتحقت بجامعة القاهرة وحصلت على شهادة الماجستير عام ١٩٦٤ بامتياز وكان موضوع رسالتها (القومية والإنسانية في أدب المهجر الجنوبي).

أوفدت ثانية إلى القاهرة ونالت درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٦٦، وكان موضوع أطروحتها (الشعر القصصي) وقالت الدكتورة سهير القلماوي وهي تناقش رسالتها: "لئن دلّ البحث على عقل ناضج وخلق علمي إنما يدل في الوقت نفسه على ما تمتاز به الباحثة عزيزة من خلق ممتاز".

عادت إلى دمشق وقدمت أوراقها وبحوثها لتلتحق بالهيئة التدريسية في جامعة دمشق وكان آنذاك الدكتور عبد الكريم الأشتر رئيساً لقسم اللغة العربية وكان له الفضل في تعيينها للتدريس بالجامعة، وكان هذا أول قرار وقّعه الدكتور الأشتر.

وكانت أول أستاذة في جامعة دمشق في كلية الآداب قسم اللغة العربية عام ١٩٦٨ وبعد سنتين عيّنت أستاذاً مساعداً في الكلية نفسها حتى عام ١٩٧٣.

سافرت إلى المغرب للتدريس في جامعة الملك محمد الخامس في الرباط لمدة ثلاث سنوات ١٩٧٣ - ١٩٧٦، بعدها عادت إلى وظيفتها في كلية الآداب بدمشق.

وفي عام ١٩٨٠ أعيرت إلى المملكة العربية السعودية وعملت في كلية البنات بجدة وأشرفت خلال إقامتها على عدّة رسائل ماجستير للطالبات وفي الوقت نفسه كانت تشرف على رسائل الماجستير لطلابها بدمشق بالمراسلة.

عادت إلى دمشق وتابعت التدريس والتأليف والبحث. قال الدكتور عبد الكريم الأشتر في مقاله المنشور في جريدة البعث بتاريخ ٢٥/ ١/ ١٩٩٣ العدد ٩٠٤٩:

"كنت أتتبع نتاجها ونشاطها وعرفت أنها سافرت مع أخيها إلى أميركا ومنحته إحدى كليتيها ولكنها كانت تعد ذلك من أسرارها الخاصة".

في أيامها الأخيرة ساءَت صحتها حتى وافتها المنية في ٢٥/ ٧/ ١٩٩٢.

أقامت لها كلية الآداب في جامعة دمشق حفلاً تأبينياً في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد بتاريخ ١٩ أيلول ١٩٩٢، شارك فيه كل من الدكتور شاكر الفحام والدكتور عمر موسى باشا والدكتور إسماعيل الكفري والدكتورة أحلام الزعيم والدكتور عزة مريدن الذي ألقى كلمة آل الفقيدة.

وصدر قرار قيادة فرع جامعة دمشق للحزب رقم /٢٩١/ وتاريخ ١٩٩٢/١٠/٢٢ لتسمية قاعة من قاعات كلية الآداب باسم الدكتورة عزيزة مريدن كونها أول عضو هيئة تدريسية في جامعة دمشق. وقّع القرار أمين فرع جامعة دمشق للحزب الدكتور محمد فاروق أبو الشامات.

قالوا في رحيلها

* الدكتور شاكر الفحام:

"لقد رسمت لنفسها قيماً عملت بها، لقد سحرتها العربية ببيانها وفصاحتها، كما أنها اختارت موضوعاً لدراستها العليا (القومية والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي) واختارت أجمل الأشعار لهذا الموضوع وعبرت من خلال دراستها عن التزامها بوطنها الحبيب.. كما استجابت لكل ما يوجبه المنهج العلمي للوصول إلى الحقيقة.."

* الدكتور عمر موسى باشا:

"كان المرأة الأولى التي دخلت الجامعة كلها كأستاذة جامعية، وقد ساهمت في بناء النهضة الفكرية على صعد مختلفة مع أقرانها كالأستاذ الدكتور شكري فيصل وشفيق جبري وأحمد راتب النفاخ".

* الدكتور إسماعيل الكفري:

"عرفت الدكتورة عزيزة مريدن طالباً وزميلاً، عرفتها طالباً فوجدت فيها اللفظ الشهي ونصاعة البيان والأسلوب الجميل النقي البعيد عن كل أشكال التكلف والغموض والاضطراب متمكنة من عملها. وعرفتها زميلة فرأيت فيها حكمة النابه الذي عرك الحياة واختبرها".

* الدكتور عبد الكريم الأشتر:
"سيأتي يوم تذكر فيه عزيزة مريدن الأديبة صاحبة الأسلوب الحي المشرق والمرأة التي اخترقت جدار السكون والأستاذة التي علّمت أجيالاً من الناس".

* الدكتور خليل موسى:
"أما مسيرة عملها التدريسي فقد شهد لها الجميع بالإخلاص والتفاني في سبيل تقديم أفضل ما لديها للطلاب، فكانت صاحبة سيرة عطرة وفاضلة بين زملائها وطلابها".

* الأديب عيسى فتوح:
"لقد اهتمت الدكتورة عزيزة بشعر المهجر الجنوبي لأنه ناصع البيان شديد المحافظة على تقاليد اللغة العربية، كثير الاهتمام بالعروبة والقومية وقد بدأ اهتمامها به حين وقع في يدها ديوان رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)".

* الأديبة قمر كيلاني:
"كانت تنشد الكمال في دراستها وكانت بالنسبة لنا نحن الجيل الثالث نموذجاً نادراً للمرأة المثقفة ليس أكاديمياً وإنما الثقافة المعرفية والأدبية والتراثية والاحترام البالغ للغة العربية".

* الأديبة ثريا الحافظ:
"عرفت فيها منذ طفولتها سعة الحافظة وحدّة الذكاء، فقد كانت تلميذة نجيبة درّستها في الصفين الثالث والرابع الابتدائي ولفتت نظري بما تملكه من جدّية وبلاغة لسان وحسن تفهم، لكل ما يلقى على مسامعها وبصورة خاصة اللغة العربية".

* وقالت تلميذتها الأديبة وفاء مارديني:
"كلمة حق اقتضاها الوفاء أخطها فيك.. أنت علمتني وأقراني معنى الجد والمتابعة.. ومعنى أن يتطلع الإنسان إلى ذرى الطموح لتصنع له المكانة. وإلى الصدق والوفاء لتصنع له احترام الذات..".

* الدكتور محمد أحمد المجالي:
"يعد كتابها (القصة الشعرية في العصر الحديث) نموذجاً متقدماً للنقد التحليلي الأصيل. وقد انصرفت الناقدة في دراستها إلى العناية بالخصائص الفنية لكل نوع من قصصها فضلاً عن النواحي التحليلية والدراسة النقدية التي اتبعتها في كل قصة".

مؤلفاتها المطبوعة

١- القومية والإنسانية في شعر المهجر الجنوبي - القاهرة ١٩٦٦.
٢- الشعر القومي في المهجر الجنوبي - دار الفكر - دمشق ١٩٧٣.
٣- من الشعر العربي المعاصر - دراسة - دار الفكر - دمشق ١٩٧٣.
٤- القصة والرواية - دار الفكر - دمشق ١٩٨٠.
٥- حركات الشعر العربي في العصر الحديث - جامعة دمشق ١٩٨٩.
٦- توفيق الحكيم آراؤه في النقد والأدب.
٧- القصة الشعرية في العصر الحديث.
٨- المسرحية بين القومية والمحلية.




هيام..

بقلم: مدحة عكاش

أيُّ نُعمى في حبِّنا الأبديِّ
أبعدَتْنا عَنِ الزمانِ الشقيِّ

يا حَبيبي!! أنا وأنتَ غريبانِ
قصيان من مكانٍ قصيِّ

لا ترانا العيونُ، نحنُ طيوفٌ
مِنْ خيالٍ، ومن ضميرٍ خفيِّ

مِنْ ضميرِ الزمانِ نحنُ أتَيْنا
وهوانا من عالمٍ علويِّ

ما خَطَرنا يوماً بخاطرِ رسّامٍ
مِفَنٍ، أو شاعرٍ عبقريِّ

* * *

يا حبيبي مِنْ سِحْرِ دَلِّكَ أطلقْتُ
جناحيَّ في خيالٍ نقيِّ

وبعثْتُ الأشعارَ تزهو على الدنيا
بذكراك، في إهابٍ سنيِّ

وأرتني الحياةَ عيناكَ فردوساً
نديّاً في ظلِّ عيشٍ نديِّ

لكَ يا مُلهمي بقلبيَ أحْلى
ما يكُنُّ الوفيُّ نحوَ الوفيِّ




السلفية و الحداثة

بقلم:
جوزفين إلياس كوزاك

قال أبو نوّاس:

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفاً ما ضر لو كان جلسٍ
اترك الربع وسلمى جانبا
واصطبح كرْخيَّةً مثل القبس

ويقول صفي الدين الحلي:

تنقل فلذات الهوى في التنقل
ورد كل صاف لا تقف عند منهل
ففي الأرض أحباب وفيها منازل
فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل

يدعو أبو نواس إلى التجديد في الأسلوب الشعري والتخلص من البكاء على الأطلال كما يدعو الحلي إلى عدم التحجر والتحيز لمقولة واحدة ويحثنا على التحديث بورود مناهل الحياة بالمعرفة الصافية والمتنوعة العديدة.

إن الحياة نهر يجرف ولهب يضيء والإنسان لا يستحم في النهر مرتين كما يقول هيرقليط والحداثة تدمر القوالب الجامدة التي تعيق ظهور وتطور المفاهيم الجديدة.

إنها إعادة نظر مستمرة ليس فقط في الجزئيات بل في جوانب أساسية واستعداد دائم لتغيير أي مفهوم كان ونزع التقديس والأسطرة. لا شيء مقدس بالنسبة لها ولا شيء محرم. كل شيء مباح للمعرفة والعلم من تحليل واقتحام مجالات الإنسان والطبيعة والدين.

كل الحضارات كان لها محرماتها، والتاريخ المعلوم يؤكد نسخ مفاهيم ونظريات ومعتقدات كان يؤخذ بها على أنها خالدة أبدية. إذ أن هذه المفاهيم والنظريات والمعتقدات

ليست يقيناً بل لحظة غبطة ورضا ومخرج حيلة؛ بنت واقعها مكانياً وزمانياً وتتغير من آن إلى آخر أو بالأحرى تتطور بالتنقيح والتصحيح فإذا لم ينتسب الكائن إلى القيم الجديدة فسيظل قيد الأحلام يضوي في المسرات المستحيلة في عالم ضائع متوهم. إن القيم أصلاً يخلقها الإنسان أو يكتشفها أو يصححها من أجل تعزيز التقدم الإنساني وتطوير الشخصية الإنسانية.

هناك الكثير من (ربما) فيهما نقوله ونؤمن به لذا يقلب العلم أوضاعاً مألوفة ويهدم أسوارها ولن يقف عن التطور فهو سيرورة تاريخية وسيبقى في صيرورة دائمة.

لا توجد معرفة شاملة ولا يدعي العلم إعطاء اليقينات بل يترك المجال حراً لحوار لا ينتهي بين المادية والمثالية بين الكينونة والصيرورة؛ وهناك سبل كثيرة للتقدم في هذا الحوار ويجدر بنا استخدام الخطط النقدية والتحرر الفكري، فلا نتحيز لمدرسة التحيز الأعمى. إن العلم تحرر وحرية لي كما للآخرين يفرض نفسه دونما حاجة لخلق الخصم أو النصير. لكل نظرية سياق تاريخي، وما من نظرية تعتبر نهائية وصحيحة كلياً كما أنه ليس من نظرية باطلة كلياً ما دامت قد وسمت عصرها.

إن النظريات كالمفاتيح تصنع من أجل أقفال معينة فنظرية تصلح لوقت بينما تصلح الأخرى لوقت آخر. إن الصراع موجود بين الأساليب يدعم العلم ويغنيه؛ وقديماً قيل: الحرب أبو الأشياء.

لا حدود للفكر النقدي ولا حدود للعقلانية ولا نهاية لعملية العقلنة والثقافة تنمو وتعمل على تغيير الذات والعالم؛ وخيار الإنسان هو خيار التحديث والحداثة والاندماج في التاريخ بمعناه السيروري لا بمعناه السكوني الماضي المُبْتَسَر، حيث يبقى أسير مراحل سابقة لم يستطع تجاوزها أو حسن التعامل معها.

إن الحداثة بمعنى ما هي حب المرء لعصره واحتفاله بمستجداته على عكس من يتغنى بعظمة الماضي والأسلاف. كل القرون هي القرن الحاضر، وللزمن اتجاه أحادي لا يمكن قلبه أو إرجاعه إلى الوراء، يتقدم باستمرار يحدث البدعة والتطور ينشر البدع على الرغم من المواقف المحافظة المتحجرة التي تخشى جدّة الصيرورة وكثيراً ما تعتبرها رجساً.

إن المبالغة في التمسك بالقديم تؤدي إلى إضفاء هالة من القدسية على الموروث بحيث لا تجوز معارضته أو إثارة الشكوك حوله؛ وهذه حالة اغتراب يعيشها الحاضر بعقلية الماضي ويلغي التساؤل بغير المألوف ويحرم الاقتراب من عالم المكبوتات الذي يصفه محمد أركون بالمستحيل التفكير فيه والممنوع، التفكير فيه واللا مفكّر فيه.

يستدعي الانطلاق من القدسي إلى التاريخي والحاجة لصياغة جديدة، روحاً وأفكاراً تتجاوز بحيويتها الأفكار التقليدية المتخثرة المكررة.

إن السلف المصنّم والد العقيم يوقف حركة التاريخ، يمنع نفسه وغيره من العبور إلى الدرب الذي يليه، إلى النقاط اللا محدودة التي تملأ فراغات هائلة بين الماضي والحاضر ويستعيض بظله عن الطريق الممتد أمامه وليس للظل كيان. إنه يحوّر الواقع بدلاً من تغييره ويؤثر التسليم على التصميم، والخلف المصنم لا يُعنى ببحث المسائل المطروحة بل يبقى حبيس زنزانات المسلم به ودراسة المشكلات المزيفة المتعلقة بالتعاليم المدرسية الأسكولاستيكية الدوغمائية. إنه سجين جديد

للكهف الأفلاطوني، محتاج إلى العتق والاختمار.

إذا لم يساءل الواقع أو يعاد خلقه فإنه يتحول للركود والسكون ويقع في شرك ثقافة التخلف وتخلف الثقافة، إن الحداثة تمرد ضد الواقع وضد جموده وسكونيته بالتوصّل إلى مفاهيم أخرى للاستمرار، للحركة بكل مجالاتها.

إن التغني بالسلف يتيح تدبيج مواقف حماسية عاطفية خالية من الروح العلمية، والغنائيات وإن كانت عنصراً جمالياً يثير العزاء من العناء إلا أن الركون إليه والاكتفاء به يعني كما أسلفت التمركز على الذات والتغاضي عمّا حولنا من وقائع ومشاكل تتطلب الحلول وتساؤلات تنتظر الأجوبة المقنعة الشافية لا الغيبية وتعليق الأمور على شماعة القدر. مسكين هذا القدر كم نحمله من تبعات تصرفاتنا ومسؤولياتنا.

إن السلفية تركن إلى الماورائيات وتلجأ إلى الغنائيات وهذه وتلك لا تغني عن البحوث العلمية الموضوعية والفكر النقدي الشامل. فالماورائيات معناها في لفظها، ونصح سقراط بإيثار الماقبليات أي الأرضيات ونقل الفلسفة من السماء إلى الأرض، مثله مثل الفيلسوف (كانط) صاحب كتاب (نقد العقل الخالص) إذ أنه يرى أن الخوض في الميتافيزيك لا يجدي ولا يغني فهو موضوع غيبي لا يستطيع الإنسان له نفياً أو إثباتاً. وأجدر به الالتفات لواقعه المادي والمعنوي.

لقد أدى الفكر السلفي بما يحمله من فلسفات وأفكار ونشاطات مَهَمَّته ووسم عصره بل ودخل كل ما فيه من خير ومعرفة مفيدة ونظرات حياتية وجمالية إلى صلب وبنية عصر النهضة من خلال الصراع والنزاع بما في ذلك القهر والبطش والمحاكمات حتى الاستشهاد.

وبحق قال البروفيسور **Professor Mempo Giardinelli** إن الإنسانية خلال تاريخها لم تناضل في سبيل الحرية بقدر ما قيدت هذه الحرية ويناشد قائلاً: لنترك الحرية للحرية.

صنف (أوغست كانط) تاريخ البشرية بمراحل ثلاث: الغيبية، اللاهوتية والميتافيزيقية، فالمرحلة الوضعية: مرحلة العلم والتقدم وفيها نظرة الإنسان إلى نفسه والثقة بسيطرته من خلال رفضه للسيطرة الخارجية على الفكر. فالإنسانية عند كانط هي الإله الجديد الذي يتجاوز فيه الإنسان الآلهة السابقة. الإنسانية التي تجدد ذاتها المتطورة والمتجاوزة للحدود والقيود؛ ويأتي (دوركهايم) ليعمق هذا الخط بأن يعلن أن المجتمع هو الله والله هو المجتمع (نظرية التعالي الاجتماعي) الذي حل محل التعالي الإلهي.

إن الإنسانية لم تكتمل بعد، إنها قيد الصنع، تكسر القواعد الشكلية والتقاليد المتحجرة، ما هو صحيح بالأمس ليس بالصحيح اليوم. ويناضل المبدعون من أجل تحرر ملتزم ودائم تجاه التحرر ذاته. إنه تحول حقيقي وانقطاع معرفي من الإيديولوجيا إلى العلم حتى في الكنيسة التي أخذت تجعل محورها متعدداً وتتنكر للمسار المحدد سلفاً فاتحة قلبها لمسارات محتملة متعددة وبذلك لن يكون الدين بداهة محورية خارجية بل لا نهاية لضروب التحرر الفكري.

إنه التمرد الحداثوي بتحديه للكلية المتمحورة يرفض كل تأسيس ويقيم المجاز للأنظمة الدوغمائية وللآلهة التي تجري محاكمتها (الوثنية) وللقوانين التي يتم تجاوزها.

كل حضارة كل ثقافة بما فيها من علم وفن ودين.. إلخ إنما هي مراحل تاريخية نابعة

من وتابعة لظروف اجتماعية واقتصادية تواكب السياسية الإنسانية والاكتشافات الجغرافية والكونية الفلكية (كوبرنيك) والحيوية (داروين) وحتى لا أقع في فخ سرد كاتالوج المبدعين العظام أكتفي بالقول بأن داروين عزز ثورة وسجل انتصاراً في الفكر الحديث بفصله الطبيعة عن الله وقدم كتابه (أصل الأنواع) نموذج تفكير يغير منطق المعرفة وبالتالي يغير معالجة الأخلاق والسياسة والدين حيث أصبحت تحولية نسبية تظهر وتتغير كأداة مساعدة للإنسان في صراع البقاء بعد أن كانت مطلقة ثابتة، كما هدم كوبرنيك وغاليليو النظام البطليمي الفلكي ومعه الفلسفة الأرسطية وعمرها ألفا عام.

يفرز التاريخُ الجديدَ باستمرار وأشكال المعرفة تاريخية تساير التاريخ المتحرك بما فيها الأديان إذ أنها ظواهر تاريخية ملائمة لزمان ومكان معيّنين.

إن الدين الجديد يرى في الدين القديم مجرد عبادة أوثان ويستثني نفسه بتجاوزه محتوى الدين القديم ويتصور موضوعه ومحتواه يستعليان على الإنسان مع أن هذا الموضوع وهذا المحتوى إنسانيان كلياً؛ والإيمان الأعمى متحيز غير متسامح إما معي أو ضدي وهو الذي اخترع الجحيم لا العقل. إنه مصادرة العقل.

إما أن يقع الوعي النهضوي نسبياً في دائرة السلفية فتحدّ من آفاقه المستقبلية وإما أن ينطلق من بداية أكثر حداثة مؤهلة لمواجهة إيديولوجية تستظل بالدين.

يخلق الإنسان السند عندما تضيق به السبل ولو لم يكن الله موجوداً لأوجدناه يقول فولتير. والله هو المطلق هو الكمال المنزه عن النقص والسلبيات الغنيّ بذاته والغنيّ عن الاستبداد والاستعباد، هو المثال اللا متناهي الشامل للتسامي وتجاوز الذات يربأ بالإنسان عن الاستكانة والضعة والعبودية للاجترار والتكرار ويدعونا لنحلّق ونخلق ونبدع لا أن نسكنٍ ونركن ونتبع؛ يدعونا للسمو بأنفسنا لا طمعاً بثواب ولا خوفاً من عقاب. فثواب الفضيلة والعلم والخير والحق والجمال في تمثلها وغذّ السير في دروبها، وعقاب الرذيلة والجهل والشر والقبح فيما تحمله وتخلفه. أخلاق بلا إلزام ولا جزاء.

لقد أتى الأنبياء مجدّدين كما العلماء، هدموا ليبنوا ونقضوا ليجددوا وكلنا يعلم تعاليم المسيح التي أتت رداً على جمود الديانة اليهودية ونقضه لتعاليمها؛ فعدا عن مقولته الشهيرة: من له عينان فلينظر ومن له أذنان فليسمع وهي دعوة جادة للتفتح والانفتاح والانطلاق من التبعية والجمود لا ننسى كلمته الناهية والرادعة للتلاعب اللفظي والركون للحرف المميت حيث قال: ليس كل من قال يا رب يا رب يدخل ملكوت السماء وعقب بولس بقوله: الروح يحيي والحرف يميت هي الحياة الخلاقة المتجدِّدة والمجدّدة لكل شيء بما فيه الحرف. ولقد ناضل النبي العربي محمد في سبيل التجدد والتجديد وناصر العلم ودعا إليه بقوله: "خذوا العلم ولو في الصين" "وإنما يخشى الله من عباده العلماءُ". لقد أشاد بالمؤمنين بالتقدم والحضارة والرقي: إيمان الإسراء والمعراج إلى عليين لا الإيمان الأعمى بالجهل والسلفية الجامدة بل ثورة على التقاليد البالية التي أخذت تعرقل المجتمع. إنها ثورة التحرر الفكري والنقد البناء. وعلى الرغم من مأثوره لا إكراه ولا قسر في الدين ودعوته للانفتاح والتواصل الإنساني القائم على الحرية والمساواة وعلى الرغم من مقولة المسيح: "دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" راح الدين يخلط بين الروحي والزمني ويدعم السلطة

والسلطان المتسلط والديكتاتوريات السياسية والدينية وأحياناً العلمية التي كانت تقف في وجه الحداثة حفاظاً على مكاسبها ومصالحها وتعتبرها معارضة هرطقية زندقة ومروقاً.

لقد صرع رجال الدين في القرون الوسطى (برنو) لأنه آمن بقواعد فلكية تكاد تكون بديهية في عصرنا. وحكم على سقراط بشرب السم لأنه يحرر فكر النشء الجديد ويعلمهم توليد الأفكار؛ كما حوكم غاليليو لنظريته بدوران الأرض وقائمة شهداء التجديد والحداثة طويلة شملت الأنبياء والرسل أيضاً.

تعتقد الحداثة بخيانة المؤسسات الدينية فأخذت تبحث عن تعاليم جديدة تعاليم العقلنة والعقلانية والتقدم البشري وراح تقديس جديد يتبلور محل التقديس القديم ليصبح الدين مسألة شخصية ولم يعد الإيمان وراثياً أو إجبارياً بل أصبح نابعاً من الذات. ومع ذلك فالحداثة لا تعني الإلحاد وإنما تعني حرية الاختيار؛ لقد تحولت العلاقة مع الدين من علاقة سلبية تبعية إلى علاقة نقدية واعية. فالدين الإنساني هو الواعي ذاته والذي يقيم صرح نقد الفلسفة الإنسانية على قاعدة نقد الفلسفة الثيولوجية. أخذت الحياة تتحرر من أسر الكهنوت.

يقول بودلير: "الحداثة هي التحرر من الخطيئة الأصلية ومحوها" أي تدمير النماذج النمطية والانعتاق من القبلية وإطلاق العنان لاختراق مجاهل المحرمات وفك قيود التابو وبالانتقال من الشهادة إلى الاتهام بتساؤلات إحيائية منتجة. فبقراءة واعية مستنيرة نبرئ حواء من تخطئتها فلقد أطعمت وطعمت من شجرة المعرفة تطلعاً إلى الأفضل ونشداناً للسعادة. قد تقولون أي سعادة بعد الفردوس وهي تجيب: سعادة المعرفة في كشف مجاهيل الطبيعة والإنسان اللا متناهية والقضاء على ظلمة الجهل.

يقول الدكتور ناصيف نصار: "إن شقاء الأحرار في معاناة الإبداع أحبُّ من سعادة العبيد في الجنة" إنها لم تعص الله بل أحبته لأنه خلقها وآدم على مثاله فلماذا لا تتمثل صفاته من علم وقدرة وخلق فتحقق ما تصبو إليه من ألوهية أرادها الله لها. وليست دليلة بخائنة فلقد ضحت بنفسها في سبيل نصرة شعبها وقومها. إنها الفتاة المخلصة والفدائية الفلسطينية.

تمثل تجربة الغرب منذ عصر النهضة جهداً متواصلاً لتحرير العقل من هيمنة النصوص الثيولوجية وتأسيس معرفة إيجابية تجريبية؛ ومن شروط الحركة النهضوية انهيار مجالات المقدس فالمنطق العقلاني والتحليل العلمي يكشف لا عجائبية أية أعجوبة أو صدفة أو عثرة تاريخية. لقد مر اقتحام مجالات المقدس بحلقات متدرجة لم تحصل دفعة واحدة وما كان مستحيلاً أصبح ممكناً؛ مثلاً قدر لفكرة المادة أن تعرض كحقيقة راسخة إلاّ أن مطلع القرن العشرين وضع هذا الرسوخ موضع تساؤل وتَمخرُ الفيزياء اليوم فيما هو أبعد من علاقات الارتياب.

وتمثل التقنية أحد مظاهر الحداثة من الثورة الصناعية الأولى إلى المعلوماتية والعقول الالكترونية فكلما بلغ الإنسان مرحلة استهدف أخرى والنظريات العلمية تشبه نوعاً ما قوس قزح فتقدم ما يبدو لنا أوله وتتدرج على مثال ألوان الطيف.

لا يملك الإنسان طبيعة بل تاريخاً، والفصل بين الحقيقة الاجتماعية والحقيقة التاريخية هو فصل مصطنع بعض الشيء فمنظومات القيم والأفكار والعلوم تعكس روح ثقافة وتاريخها ومسارها الخاص.

قد تقع الحداثة أسيرة اللعبة التي تريد تمزيقها إذ أن تبديل البنى التقليدية يحمل حرجاً

فراغاً واضطراباً من فقدان الضمانات القديمة ولكنه اضطراب منتج في عالم متقلقل بين القديم الذي يفقد كفاءته والجديد الغريب المفاجئ. وقد تنحرف الحداثة من عقلانية التنوير إلى عقلانية جامحة كثيراً ما يعبر عنها الأدب الحديث أدب العبث واللا معقول. وللحداثة سلبياتها فنزع السحر عن العالم يجعله يبدو كئيباً. ففي التاريخ مد وجزر فعل ورد فعل خير وشر نور وظلام فلسفة (ماني) الأثنينية ملاك وشيطان لم يرض بالندية بل طالب بالغلبة والسيطرة وهو وإن لم ينتصر فإنه لم يهزم بعد والحرب سجال بينه وبين البشر.

إن القيم الجديدة تتصدع بدورها بعد مرور أقل من مائتي عام على ظهورها من جراء الحروب والمذابح الجماعية. إن البذرة تحمل خرابها ولكن لتحيا بشكل مغاير أجمل وأفضل ومهما يكن من أمر منعطفات ومنحرفات فالحداثة عملية مستمرة ودائمة على الرغم من كل شيء. إنها في حالة تجدد دائم واستهلاك لذاتها. تتيح التطور والتفتح لكل الإمكانيات والاحتمالات ولن ترى في الكون سرّاً مستغلقاً بل سرّاً مؤجلاً.

ثمة اعتقاد يكاد يكون فطرياً عند العربي يدفعه إلى اعتبار الأقدم هو الأفضل ذلك إنه لم يصل بعد إلى الحد الأدنى من المحاكمة والتفكير ولا يمكنه تصور إعادة بناء شيء وقع تجاوزه تاريخياً.

يحكمنا النموذج يقول الجابري: "نموذج سلفي أو معاصر أو اغتراب والنموذج يقولب ويحاصر الفكر فلا ينظر إلى الكون، إلى الآخر بموضوعية بل من زاوية محددة".

إن الأزمة في الفكر العربي هي الانسداد والالتفاف حول نفسه والتغني بذاته وهذا موقف مرضي (Ego Centrico) التمركز على الذات موقف يرى نفسه ذروة الحضارة والثقافة والقيم. إن الفكر العربي فكر مستريح متفائل لأنه فكر إيديولوجي يعيش مع نفسه لا مع الحقيقة ويغوص في الماضي حيث يخيم الإذعان اليائس والحنينية الحزينة. إن الوعي الزائف للماضي ينعكس على الوعي الحاضر فيزيفه. لقد ابتلي الفكر العربي بالمحدودية التي ضيقت مجال الممكن التفكير فيه ووسعت دوائر المستحيل والممنوع التفكير به فدخل زنزانة أطال المكوث فيها؛ قال معروف الرصافي:

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

فكثيراً ما يصطدم الفكر العربي بمواقع دوغمائية وتصبح الامتثالية الموقف الشائع داخل اسكولاستيكية اتباعية اجترارية معبأة بالقوة الكلامية واللفظية للعبارات المنقولة. وبدلاً من أن يؤرخن يحول التاريخ الحالي إلى رواية سردية اعتباطية انتقائية وتنغلق الدائرة فتتأخر لحظة التجديد بالخلط الخداع وأساليب التلاؤم السهل والتستر والمغالطات التاريخية.

إن التقليد ينتقي ويستخدم إيديولوجيا مجموعة من الأفكار والعقائد والممارسات على أساس أنها دينية ولكنها مقالات تبجيلية مناضلة بشكل منافق براغماتي. ويستطيع الفقهاء أن يشوشوا الحقيقة التاريخية عن طريق تلاعبهم بالأحاديث والتفاسير وتوجيهها في الاتجاه الذي يريدونه.

لا ينبغي خلط ذلك بالتحديدات المثالية والطموح المطلق والبحث عن الكمال أو باختصار الدينامو الروحي للأديان؛ على عكس الثيولوجيا السلفية التي تحاول تثبيت الأشياء على الرغم من ضمّها خلسة نتائج العلوم ولكن

العلم ينتقم لنفسه عاجلاً أو آجلاً. هدف الحداثة تجاوز الصرامة النظرية والنزعة الاختزالية والخضوع لعودة نقدية باستمرار على ذاتها.

يصرح الخطاب العربي بالنزعة العلمية ويدّعيها ولكنه في الوقت ذاته يرفض العلوم الإنسانية والاجتماعية ويقف حاجزاً في وجه التغيير ويقدس السلفية، إنه ذاتي لا موضوعي، ضد التاريخ والعقلانية ومنطق الواقع. يتغير الواقع ولا يتغير فهمنا له لأننا نخضع لمبدأ التكرار ومرجعيتنا في سنة الأولين من آباء وأبطال وأولياء وفقهاء. إن العالم لا يعمل بالإيديولوجيا الدوغمائية بل بثورات العلم التي تغير التصورات حول الواقع، تدمر القديم وترشح الجديد؛ والمسافة بين البحث العلمي والتساؤل الدائم للحداثة، والتأكيد المغرور لليقينات الاعتباطية في فكر الثيولوجيين الدوغمائيين بما فيهم الماركسيون فاصلة.

إن إعطاء العقل العربي أو الهوية القومية العربية ماهية ثابتة مناقض للعقل الحضاري الحديث واعتباطي ميتافيزيقي لا علمي؛ والمجتمع العربي يعيش ضحية فرضياته التقليدية السابقة فصورة العالم الستاتيكي الجامد أصبحت من التركيبات العتيقة. لقد دفع الإسلامُ العربَ إلى التجديد والتغيير والاجتهاد وتجاوز ما وجدوا عليه آباءهم. والحداثة تجاوز يكشف السلبيات ويحول العقل من الخرافة والقدرية والسحرية والانفعال إلى العلم الموضوعي وترك التصلب الذهني والتسلط المميت للإبداع المنكفئ على الذات المتقوقع في التقليد الذي يقيم المحرمات التابوات ويخطط الحدود والآفاق المحظورة باسم ما يفرضه على أنه الحقيقة الوحيدة. إن التقليد تصلب في الرأي واستبدادية فكرية تقلص المعلومات وتبسط المشاكل؛ يأخذ بالتوفيقية التي توازي بين القيم الدينية والحضارة الأوروبية عن طريق التنظير التبريري القائم على إرجاع القيم والمنجزات الأوروبية إلى جذور أو أصول عربية إسلامية وتجييرها بالتفسيرات الدينية.

قال الشاعر:

وكل يـدَّعي وصـلا بليلى ... وليلى لا تقـرُّ لهـم بـذاك

وأكثر من ذلك يبرر التقاعس بأن الله سخر العالم الغربي حيث يستثمر جهوده ويتمتع باكتشافاته وبحوثه دونما تعب ولا نصَب. قل اعملوا وسيرى الله عملكم. ليس في العِير ولا في النفير. ينتقي يأخذ ويترك على هواه، يوفق يجيّر لحسابه والتوفيقية شوربة كما قيل. لقد كانت أحد أسباب تخلفنا لأنها قيدتنا فكرياً تقية من أصحاب النفوذ والمحافظين وكلما ازدادت حدة الحماس والتصلب كلما أصبح النقد الموضوعي ممنوعاً وكلما ضاعت فرص التفكير الحر. لقد نادى المعتزلة بالاجتهاد الذي سنه الإسلام ومن شروط الاجتهاد تثوير عالم الإنسان العقلي والروحي وغياب مفهوم العصمة وتحرير العقل من المسلمات الثيولوجية فإذا ما استعاد الفكر العربي هذا المنهاج فإنه سيمتلك وسائل كفيلة بمواجهة المشاكل بمصداقية أكبر وابتكارية أقوى.

ما لم تتحرر النهضة العربية من سيطرة الأيديولوجية ومن عقدة التراث، وما لم تتبنى الموقف النقدي فلن تملك القدرة على تغيير الواقع المتردي، اختارت الأنتلجينسيا العربية التقليد الموديل الأكبر، فعجزت عن الدفاع عن وجود الأمة بلا تجديده؛ إنها تدافع عن التقليد الذي تجاوزه العصر عوضاً عن الدفاع عن وجودنا دفاعاً واعياً عصرياً. إن

قيام إسرائيل ليس صدفة واستمرارها ليس أعجوبة بل هي جزاء تاريخي للتقليدية والتخلف. إن عنايتنا بالمنهجيات أقل من عنايتنا بالشروح وبدلاً من السؤال ماذا نفعل يكون السؤال ماذا نقول.

لقد أضحى موضوع الحداثة أكثر إلحاحاً وتأزماً في عالمنا العربي وإننا لمضطرون لخوض مراحلها على الرغم من ظروفنا الصعبة إقليمياً ودولياً. إنه قدر التقدم العربي؛ ومسؤولية تسييره مسؤولية الفكر والمفكرين؛ الفكر أولاً وقبل كل شيء فهو السابق والدافع والرافعة والمحرك، لتصبح العقلانية العربية أكثر نقدية وديناميكية تخضع باستمرار للأسئلة المطروحة والمستجدة دوماً لكشف المجاهيل وتواكب تسارع التقدم التقني والاكتشافات الهائلة في عتبة وما وراء عتبة عالم واسع من الاحتمالات غير المحدودة؛ ولن يتسنى لها ذلك إلاّ إذا ابتعدت عن عقلية المتاجرين من مصنفين ومفتقرين إلى التحرر الفكري، وأخذت بالتركيز والتكييف لاستثمار الزمن وكسر تواتره عبر الحقائق العلمية والأمانة للواقع دون الالتفات إلى الوراء ودون الاستبدادية الفكرية.

إن صنع المستقبل الأفضل هو صناعة الثورة التي تتناول قضايا المجتمع الحضارية والثقافية، المادية والروحية في أدق سرائرها الوجدانية والدينية والاجتماعية.

كانت مقولة ديكارت الشهيرة (الكوغيتو): "أنا أفكر أنا أشك أنا موجود" من أولويات النهضة الأوروبية وبداية تحرير العقل من سلطة الكنيسة وسلطة السلطان السياسية والبابا الروحية وولادة حداثة راكمت زلزلات وزعزعت يقينيات منها الإصلاح الديني وفلسفة الأنوار التي ناقضت التقليدية ورفضت المسبقات المطلقات الميتافيزيائية والمعتقد الإيماني وأكدت على العقلانية والعلم والحرية الفكرية ضد الاستبداد الأسكولائي التلقيني.

إن التطور العلمي يتلخص في الانتقال المتلاحق من الأسطورة والإيديولوجية إلى الحقيقة الواقعية.

علينا ألاّ نأخذ الكلام على عواهنه فيغني كل منّا على ليلاه أو على ليله، وعلينا أن نغربل بل ننخل كي نبعد الزؤان والضار فليس كل ما قيل تاريخياً بل كثيراً ما يكون اختلاقاً خدمة لمصلحة، لتيار، لمرحلة وبحق سمي تداول الأقوال (عنعنات). علينا أن نقرأ بين السطور فلم نزل نعيش في عالم التقية واللف والدوران، لا يكفي أن نقرأ علينا أن نناقش ونغني. لا تكمن المشكلة في الفرضية بل فيمن يفترض وفي الذي يتقبل دون تساؤل.

يقول ماركس: "الخجل هو بداية الثورة" أي اعتماد المرء النقد الذاتي دون شفقة ودون رضى والانتقال من التغني والغنائية إلى التاريخية والموضوعية. سئل بابلو نيرودا: "لماذا لا تتغنى بالزهر؟" فأجاب: "انظروا الدم في شوارع تشيلي" لو ينفع التغني لأحال الحال وحال دون الاحتلال.

إذا بقي الفكر العربي حالماً هارباً تواكلياً اتكالياً فسيوضع خارج الزمن. وما لم تتحرر النهضة العربية من سيطرة الإيديولوجية ومن عقدة التراث وما لم تتبنى الموقف النقدي فلن تقدر على تغيير الواقع المتردي. إن معركة البناء أقسى من معركة التحرر الاستقلالي وأطول والأصالة تبنى ولا تتخذ بقرار. في حين أن التقليد أيْ السلفية تتمحور على الماضي تتمحور الحداثة على المستقبل. ليس من نظرية للحداثة فهي سيرورة تاريخية وصيرورة إنسانية في حركة مستمرة خلاقة، إنها ثورة فكرية اجتماعية دائمة.

عندنا مصلحون لا ثوريون يهربون من المعارك الحاسمة يقدمون نصوصاً يترجمون يشرحون بحذر، ينسحبون من المواجهة ويختبئون وراء واجهة وعوضاً عن السعي لما يمكن أن نكون يأخذنا السراب الخلبي إلى ما كنا.

سنعطي للحياة معنى إذا أطلقنا أنفسنا خارج أنفسنا ذاتها لكي نستعيدها من خلال الآخرين. إننا في النهاية (النحن) في التحرر الفكري أكثر من أي تجربة أخرى.

فور أن نعبر البوابة المظلمة نتوج تجربة الآخر بنور الانفتاح العلمي والعالمي. والحاجة للخلاص من الهواء الفاسد الذي أحدثته النوافذ المغلقة كبيرة ولا بد من الانفتاح على التجارب الإنسانية للانطلاق في التجربة الذاتية وليس الطريق وحيداً إلى روما أو إلى مكة بل تتعدد الطرق بتعدد الجهات والمناطق التي يأتي منها الحجيج.

إذا تحققت العقلنة على مختلف الأصعدة تجعل من العرب قوة هائلة لا يرتاح الأعداء لتحقيقها والإمكانات وفيرة والطاقات كبيرة إذا ما عقد العرب العزم وانتزعوا الفرصة ونهضوا إلى مواكبة التاريخ.

تطلع الإنسان إلى الأفضل والأسمى فأخذ يتجاوز ويتسامى في مجالات الحق والخير والجمال. سن القوانين ونادى بالمساواة والحرية وإبداع الفنون تزويقاً للحياة وتصعيداً بالجماليات. "إن الجمال سينقذ العالم" يقول دوستيوفسكي. والله جميل ويحب الجمال والجمال ضد القبح، ضد الشذوذ، ضد الاستبداد والاستعباد. ضد الجهل والتخلف. وهذه اللا جماليات جرثومة تأكل وتهين المشاعر والكرامة ولا شك إنها تلوث وتمرض وتقصر الأعمار. إن متوسط عمر الإنسان في البلدان التي تعير الجمال اهتمامها أعلى من مستوى عمره في البلدان اللا مبالية والتي لا تفرق بين الغث والسمين.

إذا كنا قد عجزنا عن تحقيق الكثير من مطامحنا وآمالنا فلا أقل من أن نبدأ بأنفسنا باللجوء إلى الجمال بأصنافه المادية والمعنوية بدءاً من العناية بالبيئة: بالماء والخضرة والهواء وصولاً إلى تثقيف الروح وتربيتها على احترام الآخر والطبيعة والإعجاب بالطبيعة بهدف تحويلها. للجمال أبجدية علينا أن نتعلمها.

يقول المتشائمون: كنا وليس في الإمكان أبدع مما كان. ويقول العلمانيون: سنكون وسنبدع خيراً مما كان، وسنسير صعداً إلى المجد في الأعالي والسلام على الأرض والمسرة في الناس. وعلى الرغم من الانحرافات والنكسات والامتثال الذي يجري هنا وهناك فإن البشرية تتلمّس طريق الارتقاء عبر متوالية حسابية إن لم تكن هندسية إلى الإنسانية بل وإلى الألوهية. والطريق مفتوح والسبل عديدة والمركبات الحديثة غيرها القديمة لَئن يحلّق الإنسان في الآفاق خير من أن يحط وينبطح، أولى به أن يناطح الثريا منّ أن ينطح الثرى ولا فرق بين معقّد ومقعد إلا في ترتيب الحروف والقضية في النهاية قضية الوعي الثقافي. لقد أنسنت الألوهية ليتأله الإنسان فهل تختفي المعركة بين السلفية والحداثة.

ويقول هيديجر، وهو ابن الفلسفة الألمانية العتيدة: "ما يبعث على التفكير هو أننا لم نفكر بعد. ولا يمكن للعلمنة أن تنشر ضمن الفراغ الثقافي. الآمال كبيرة والطموحات جادة والعملية جديرة بالجهود:

سيري أُمامة إن الركب مرتحل
إلى الأعالي بتحديث وتنوير




امرأة..

شعر: محمود حمود

(١)
امرأة ترضع الرصاص بنيها
تدوس رقاب العدوْ
وصدر يعاند ريحا
كثير الحنُو

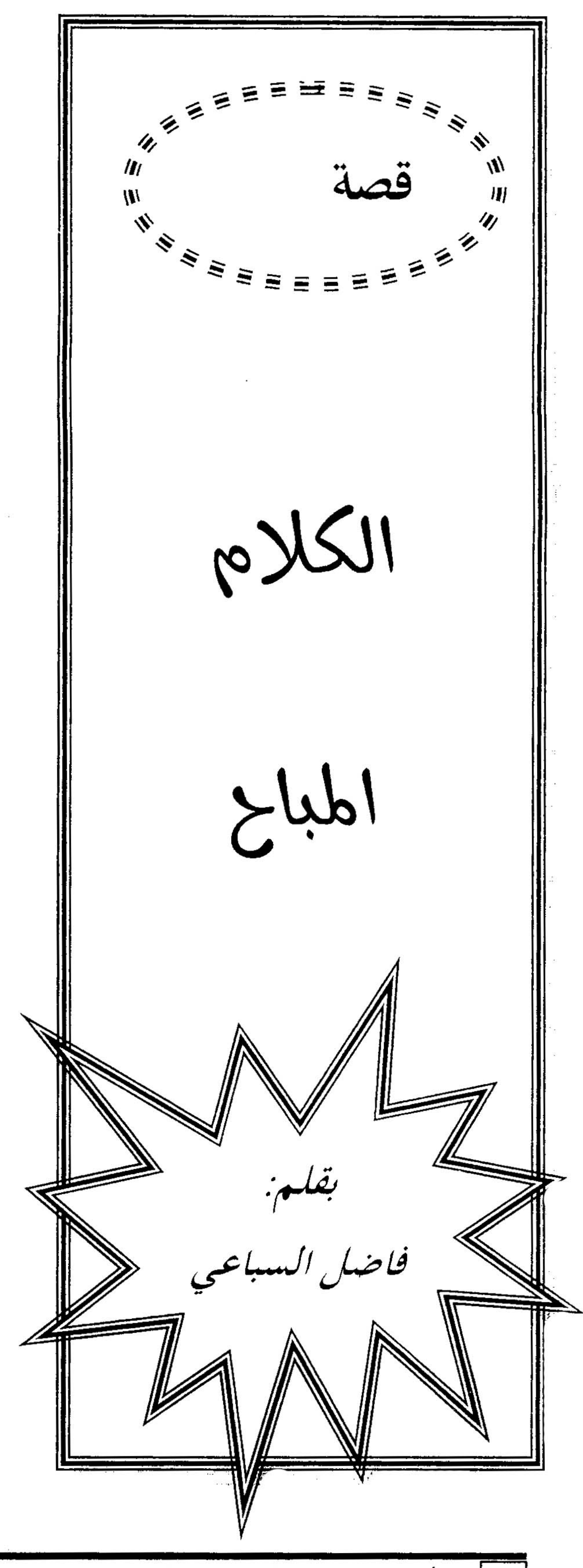
(٢)
امرأة تُفقد الليل طهارته
يفضحها النهار

(٣)
امرأة آفاقها طيفٌ
أنوثتها خفر
يستحم بها النقاء

(٤)
امرأةٌ وقتَ تشاءْ
تزرع الحلمَ
تفصّله على مهلٍ
تغنّيهِ
نغنّيهِ
وتذروه الرياحْ
تجف الآمال منها
والأماني والنساء

(٥)
ما إنْ خسِرْت كونَها آلهةً
حتى (قام الكون وقعدْ)
لن أحيا عبْدَه.



كان على يقينٍ من أنهم سيُلقون القبض عليه فورَ أن تطأ قدمه أرض المطار. ولكنهم – يا للغرابة – (لم يفعلوها)! ضربوا على الحاسوب، فارتسم على شاشته الصغيرة اسمُه بالخطّ الثُلُث. ختموا أوراقه، وردّوها إليه باسمين. ودخل، دون أن يلتفت إلى حيث تجمَّع القادمون حول (البساط الدائر)، فمتاعه كلُه هو ما احتوته الحقيبة الصغيرة المدلاّة من كتفه. لم يفتحها رجل الجمارك، الذي بدا مهذّباً جداً، وأشار له بيده أنْ: "عدتَ؟ فادخلْ مُرَحَّباً بك في وطنك الحبيب!".

في صالة الاستقبال كانوا في انتظاره. عناقٌ ودموع. عشر سنين نَفْياً اختيارياً. عيونهم تتلفّت، فما تزال ثمّة خشيةٌ من أن يُطبِقوا على حبيبهم العائد.

ارتمت الطفلة في أحضانه:

- أنا لم أرَك إلاّ في الصُّوَر.

قال أخوها:

- ولم نسمع صوتك إلاّ عبر المكالمات الهاتفيّة والإذاعات و(الفضائيّات).

لم يُصدِّقوا أنهم يرونه لحماً ودماً، وأنه وصل إليهم عبر مطار العاصمة في وَضَح النهار.. لكأنهم في حُلُم!

أعلنها:

- جئت، يا أحبّائي، لأموت في الوطن، ولو في إحدى زنزاناته. لقد أضناني البعاد حتى اشتقتُ الموت.

طَوال الليل وهو يتحدّث. وما كان حديثه إلاّ ليزيد في مخاوف الذين عذّبهم الشوق إليه. دينُه الانتقاد: الكشفُ عن الأخطاء التي استشرت، وتعريةُ الفساد الذي شمل كلَّ شيء.

توسَّل إليه ابنه، الذي بات يُناهزه طولاً:

- أبتاه! ابقَ لنا، بعد الحرمان الذي عشناه دهراً طويلاً.

عُدُّوني رحلتُ، واكتفوا بالذكرى، يا أولاد. إنْ سَكَتَ الذين وهبتْهم العنايةُ القدرةَ على القول والفعل، فمن ذا الذي يُفَتِّح العيون على العيوب ويدفع الأذى عن الوطن!

- يا أُخَيّاه! ألا ترى أنّ هناك إصلاحاً ما؟

- ما أنا على يقين منه أنّ الفساد قد تراكم طبقاتٍ بعضُها فوق بعض.

- يا زوجاه! أَلم تَرَ أنهم أتاحوا لنا أن يتحقق حلمُنا بهذه الجِلسة الهنيّة؟

- هذا يُملي عليّ أن أرى ما بعد ذلك.

ويرنّ جرس الهاتف.

- بيت المفكّر (الأستاذ عبد الصَّبُور)؟

- من المتكلّم؟

- هنا فرع (السبع سبعات). يكون طيّباً منكِ، يا سيّدتي، إذا سمحتِ لي أن أُبْلِغ الأستاذ على الهاتف رسالةً قِوامها سبع كلمات!

همستْ:

- إنهم يطلبونك لفرع (السبع سبعات).. رسالة من سبع كلمات.. أحسَب أني في حلم!

قال بصوتٍ جهير:

- نعم، أنا المواطن عبد الصَّبُور، العائد في العَشيّة إلى الوطن.. من أنت؟ من تكون؟

- أنا (الجنرال ابن عَبّاد) رئيس فرع (السبع سبعات)!

- وماذا يريد منّي الجنرال ابن عَبّاد، الأندلسي كما يُخيَّل إليّ؟

- نرجو حضوركم إلينا في الوقت الذي يناسبكم!

سبع كلمات بالعدد.. وانقطعت المكالمة.

ولم يَدَعوه يذهب وحيداً.

دخلوا المبنى دون أن يسألهم أحد الحرّاس عن (إذن دخول).

ولمّا تبيّن ضابطٌ بنجمتَين أنّ الواقف أمامه إنْ هو إلاّ (الأستاذ عبد الصَّبُور)، الذي دعاه الجنرال إليه قبل قليل، هبّ واقفاً ليؤدّي له التحيّة، ثمّ يُسرف في عبارات الترحيب، وهو ينسلّ إلى مكتب رئيسه.

- رئيس الفرع في انتظارك، يا سيّدي.

وجد هذا الرجلَ، (الجنرال ابن عَبّاد)، ضئيل الجسم وذا عينَين متّقدتَين غائرتَين في وجه أسمر ليمونيّ.

نهض يصافحه:

- كلّ ما تُصرِّح به، يا أستاذ عبد الصَّبُور، (يُؤَرْشَف) عندنا.

- يا له من جهدٍ تبذلونه في هذا الخصوص!

- إنْ عندنا رجالاً قد كُلِّفوا القيامَ بهذه المتابعات.

- سمعنا أنّ نصف الشعب منوطٌ به مراقبةُ النصفِ الآخر.

- ذلك من أجل حماية الوطن من أعدائه.

- أنت من (بني عَبّاد)؟

حملق الجنرال:

- ولِمَ هذا السؤال؟

- اسمح لي، يا سيّدي الجنرال ابن عَبّاد، أن أُحدّثك حديثاً شائقاً، عن أنّ في تاريخنا سَمِيّاً لك: (ابن عَبّاد)، اسمه الكامل: (المعتضِد بن عبّاد)، كان يحكم (إشبيلية) في زمن (ملوك الطوائف). تقول الرواية التاريخيّة، أنّ الرجل كان يقتل خصومَه ويجعل جماجمهم في خزائنَ في قصره، وقد كَتب بيده على كلّ جمجمةٍ اسمَ صاحبها، وكان يخرجها كلما عنَّ له، ليتمتّع بمشاهدتها! ذات يومٍ غضب ابن عَبّاد، في

مجلسٍ لـه، علـى صديقٍ مـن كبـار مثقّفـي عصـره، فأمر مَن حوله بأن يقتلوه. ولمّا كان هؤلاء يعرفون أنّ الرجل صديقٌ لسّيدهم، وأنه بمنزلة الأستاذ له، فقد أحجموا عن تنفيذ الأمر بأن فرّوا من المجلس، فقال هو يقتل صديقه بيدَيه.. أسألك، يا سيّدي الجنرال: هل أنت من سُلالة ذلك الرجل؟

تململ الجنرال:

- أظنّ.. أنّ الصلة بيننا.. مقطوعة.. ولكن (فَطِن الجنرال ابن عَبّاد) إني دعوتك لأُبلغك أنك متَّهمٌ بـ (العيب بالذات الثوريّة)!

- تهمةٌ لا أُنكِرها!

- فأنت موقوفٌ منذ الساعة، لتُقدَّم إلى (محكمة الأمن الإيديولوجي).

- أظنّ أنّ زنزانةً في (معتقل المُنْلا حسنين) تنتظرني!

واقتيد، غيرَ مكبَّل اليدَين، إلى سيارةٍ تنتظر في الفِناء. وجدها – يا للغرابة! – فارهةً، ومكيَّفة، وقد تكون مصفّحةً فلا يخترقها الرصاص. ولم تتجه به إلى حيث (معتقل المُنْلا حسنين) الذي يعرفه جيّداً، بل ساروا بها غرباً، فأتاحوا له – وهو غيرُ معصوب العينَينْ – أن يتمتّع بمشاهدة الضواحي الحديثة، التي كثيراً ما سمع أنّ المسؤولين، الذين بَنَوها بـ (عَرَق الجبين)، يسكنونها سعداء: دروبٌ ملتفّة، ساحاتٌ وسيعة، فيلاّتٌ أنيقة، تحيط بكلٍّ منها حديقةٌ غنّاء..

وإلى إحداها دخلوا به.

- هذا طابقٌ (للاستقبال)، وفيه قاعة المكتبة؛ والطابق العُلويّ غرفٌ للنوم والراحة، وفي السُّفليّ المطبخُ وغرفة الطعام، ومبيت الحرس.

تراءى له أن يسألهم:

- أهي مكتبةٌ عامرة؟

- تُعاينها بنفسك. وإذا افتقدتَ فيها شيئاً تريده أتينا لك به. وهناك خطٌّ هاتفيّ..

- فيه (الصفر)؟

- الصفران.. تستطيع أن تتّصل به إلى أنحاء العالم.

- و(الفاتورة)؟

- يُسدّدها (السبع سبعات). وهنا خطٌّ للفاكس. وبريدٌ إلكتروني. وإن شئت بعثنا إليك سكرتيرة.

وبيّنوا له، بصراحةٍ لم يتوقّعها، أنّ الأملاك التي جَرَوا على مصادرتها من الناس، منها ما كان يعود إلى رجال (العهد البائد)، ومنها ما يخصّ (المُتراجعين). إنّ هذه الفيلاّ هي لواحدٍ من قياديّي الأمس، تراجَع متخاذلاً، حين ظنّ أنّ "وعيه قد عاد إليه"، وهو الآن قابعٌ في (المُنْلا حسنين)!

- أَهو مثقّفٌ إلى درجةٍ أن يقتني هذه المكتبة النفيسة؟

- سوف تكون سعيداً بمطالعة ما فيها من مصنّفات غير مسموح بتداولها!

- أهو قريبٌ موعد الجلسة الأولى؟

- سنحاول ألاّ يكون بعيداً.

- لا تبذلوا كبير جهد في هذا الخصوص!

❖ ❖ ❖

مسح بنظره أرففَ المكتبة: كتبٌ قيّمة، مصادرُ أصليّة، موسوعات: بلغةٍ، باثنتين، بثلاث لغات.. إنْ لم يكن، هذا الذي هو فيه، حُلُماً، أتُراها (مكيدةً) ينسجون خيوطها بدمٍ بارد: رفاهيّةٌ وبُلَهْنِيَّةُ عيش، ثمّ يحتالون عليه بالسّمّ، ويُعلنون: قد مات حتف أنفه، ويمنعون تشريح جثته!

جلس وراء المكتب الفخم: دفاترُ من ورقٍ أبيض، ووردي، وبزرقة السماء. أدواتُ كتابةٍ مختلفاتُ الأشكال والألوان.. وإذن، فإنّ ساكن البيت كان – بعد ثقافته – كاتباً أو شاعراً.. يا له من (تَراجُعيٍّ) قد امتلأ معرفةً وذوقاً!

قَرع الجرس. فأقبل عليه واحدٌ من الحرّاس. ضرب بكعبٍ حذائه الأرض، مؤدِّياً التحيّة بأعرق تقاليدها العسكرية:

- حاضر سيّدي!

لا، لا.. إنّ عليه أن يُبدِّد هذا الحُلُم الكاذب!

تناول قلماً. بدأ بكتابة العنوان: (لن أدعهم يخدعونني)، بل: (أنا لا أُشترى بالنعيم الزائل).. أو لماذا لا يُسمّيها: (الحرية أغلى)؟

ولمّا فرغ من كتابة المقالة، بعد وقتٍ لم يعرف مداه، رأى الفتى ما زال منتصباً أمامه. ضحك: هذه أول مرة أكتب فيها مقالةً عنيفة في ظلّ رجلِ سلطة وإن كان صغيراً!

دُعي إلى الطعام.. لله درُّهم: ويُجيدون إعداد الموائد! خدمة (خمسة نجوم)!

في المكتبة أرسل المقالة، عبر الفاكس، إلى إحدى جرائد المهجر. لسوف يستغربون: من عاصمة بلده، التي وصل إليها في العَشيّة، يكتب لهم هذه المقالة اللاذعة.. أيُّ جديدٍ حصل!

تصفّح كتاباً، قلّب أوراق موسوعة.. وفجأةً تذكّر:

- آلو! أجل، إني بخير. لم يَزُجّوا بي في (معتقل المُثْلا حسنين) كالمرّة السابقة، بل جعلوني في فيلاّ أنيقة، قد صادروها من واحدٍ من المنشقّين المتراجعين، فيها من وسائل الراحة، ومن الكتب، ومن أدوات الكتابة وأجهزة الإرسال والاستقبال، ما يعجز عقلٌ عن تصوُّره.

- غير معقول!

- كتبتُ مقالةً ناريّة، بعثت بها الساعة إلى المهجر.. وسوف أشرع بكتابة أخرى!

- ألن تكفّ عن هذا؟

- قالوا أنّ لي أن أستقبل الأهل والزُّوّار.. العنوان: (فيلاّت المسؤولين الأكابر)، غربيّ العاصمة، رقم الفيلاّ (٧٧)، في كلّ طابق سبع غُرَف، كلّه سبعات.. أُقيم فيها بمفردي. قالوا أستطيع، أيضاً، أن أستضيف أفراد أسرتي فيبيتوا عندي!

- يا (للتصحيح) الذي حصل!

- ينبغي التأكّد.

كَتَبَ، وكَتَبَ..

تكلّم، عبر الهاتف، إلى كلّ من يودّ أن يتحدّث إليهم في أرجاء المعمورة..

تنقّل بين (الفضائيّات) في العالم.. وزار (المواقع) على الإنترنت..

قرأ، قرأ كثيراً..

نام، قال، استيقظ..

استقبل الزُّوّار. ارتفعت أصواتهم في المناقشات الحامية حول الحريّة، والاضطهاد، والتنكيل، والفساد، والرشوة، والتحيُّز، والتهميش، والتعتيم، واحتكار السلطة، وأعداء الداخل وأعداء الخارج.. قلّبوا صفحات التاريخ القديم والحديث والمعاصر، واندفعوا إلى آفاق المستقبل القريب والبعيد.. بعضهم اتّهمه بالتخاذل والاستسلام.. وكانوا، في كلّ ذلك، واثقين من أنّ مناقشاتهم تُسجَّل في هذه الفيلاّ – المَصْيَدة، ولكنهم لم يكونوا آبهين!

❖ ❖ ❖

- اسمُك؟

- ألا تعرفونه؟ (عبد الصَّبُور).

- الشهرة، الكُنية؟

- إنْ ذكرتُها لكم، أيها الجهابذة، فسوف تضحكون.

- نَعِدك بألاّ نضحك.

- هل تأكلون، في أمسيات الصيف، تلك الفاكهة الشَّوكية، التي يُقيم باعتُها

الموسميّون المصاطبَ من أجلها على قارعة الشوارع السياحيّة، محيطين أنفسهم بشُقوف الأزهار والرّياحين؟

- تقصد (تين الصبّار)!

- أنا من أسرة (صبّارة).. اسمي الكامل: (عبد الصَّبُور صبّارة)!

فرآهم ينكثون بوعدهم: يضحكون حتى أوشكوا أن يستلقُوا على أقفيتهم!

- المهنة؟

- (مُدمِن معارضة).

- منذ كم من الزمن؟

- في الداخل بضعة عشر عاماً، ومثلها تقريباً في المنفى الاختياري.

يقول رئيسهم بلهجةٍ ودّية:

- يا أستاذ (عبد الصَّبُور صبّارة)، يا نور عيوننا!

- ....! ...! ...!

- قد اطّلعنا، نحن أعضاء (محكمة الأمن الإيديولوجي)، على كلّ ما قدّمتْه لنا (شعبةُ محفوظات الوطن)، ممّا كتبتَ، وصرّحت وأدليتَ، وخطبتَ.. وعرّفتْنا (أجهزتُنا الراصدة) على أفكارك المستقبليّة وتطلُّعاتك الخاصّة والعامّة، الوطنيّةِ والقوميّة والعالميّة.. وقرأنا، بإمعانٍ زائد، كلَّ ما خطّتْه يدك في حقّ (النظام) من المآخذ والبهادل، وما كِلْتَه له من الشتائم القبيحة، وما كلّلتَ به جبينه من التُّهم الشنيعة.. وسمعنا كلَّ ما تحدّثتَ به، أنت وأصحابك، في تلك الفيلاّ المريحة التي أسكنّاك إيّاها، من أننا جرينا – وما زلنا – على اعتقال الأبرياء بالظنّ والشُّبهة، وأننا نسحق كلّ (تنظيم) مُناوئٍ قبل أن يتمكّن من الوقوف على قدمَيه، وأننا ننتهك حقَّ الحياة لخصومنا المعارضين، ولكنْ – للحقيقة والتاريخ – إننا، يا أستاذ عبد الصَّبُور، لا نجعل جماجم في أكياس، كما كان يفعل صاحبك (ابن عبّاد) الذي تتغنّى بحكاياته، بل نحن ندفنهم في قبورٍ جماعيّة، واحداً بجوار الآخر، في صفوفٍ منتظمة، رحمةً بعظامهم وراحةً لنفوسهم.. فوجدنا، أيها المفكّر الكبير، أنّ كلّ ما صدر عنك، من قولٍ ومن فعل، وكلّ ما يتردّد في رأسك من الخواطر والأفكار، صحيحٌ مئة بالمئة، وهو ممّا لا يجول إلاّ في بالِ غَيُورٍ على وطنه، وإنْ خالطتْه أمورٌ خاطئةٌ لنقصٍ في المعلومات التي تتوارد إليك.. وعليه فقد قرّرنا..

❖ ❖ ❖

تقول الحكاية:

إنّ المحكمة أعلنت قرارها، فجاء بـ(عدم مسؤولية) الأستاذ عبد الصَّبُور عن كلّ ما كتب وصرّح وباح!

ويقول عبد الصَّبُور أنّ الجنرالات الخمسة، ما إنْ لفظوا حكمهم، حتى غابوا عن عينَيه فكأنهم ما كانوا، وقَوْسُ المحكمة زال، ولحقت به جدرانُها وسقفها، ووجد نفسه في العَرَاء، فتوجّه إلى بيته سيراً على الأقدام.

وتمضي الحكاية إلى القول بأنّ هذا المواطن الصَّبُور وجد أنّ الكلام، كلَّ الكلام، أصبح مباحاً: فالناس، كلّ الناس، يكتبون وينتقدون ويُنَدِّدون، ولكن لا تأثير لذلك ألبتّة، فقد تبلّدت الأحاسيس، وتحجّرت القلوب، وتجمّدت العقول، واستوى عند الناس الفرحُ والحزن، الضحكُ والبكاء، اللذةُ والألم، الحياةُ والموت..

وقد تقدّم إليهم مراراً بطلب السماح له بالعودة إلى منفاه، لعلّ ما يفعله هناك يكون أقدرَ على التأثير، ولكنهم كانوا يعتذرون له في كلّ مرّةٍ عن عدم الاستجابة، مُرغِمينه على البقاء في هذا.. السجن الكبير.





رحيل..

شعر: ديالا صالح مشرقي

ويسألني هل نويت الرحيل؟
فأحبس في العين أنهار دمعي
لأن الذي قد تبقى...
من العمر شيء قليل..
ويسألني عن حياتي
فيرتجف القلب منّي
كأن السؤال محالٌ
كأن الجوابَ من المستحيل
يفكر في البعد عنّي
ويسعى إلى البعد عنّي
ولكن تضيقُ المسافاتُ حولي
تضيقُ الدروب
وما منْ دليل..
ويسألني هل نويت الرحيل؟
فيختصم الموت.. والعيش عندي
لأن الحياة مع الموتِ دربٌ طويل
ويجرحني بالكلام الذي ينتقيه
فأعلن في السّر صمتي الذي أرتضيه







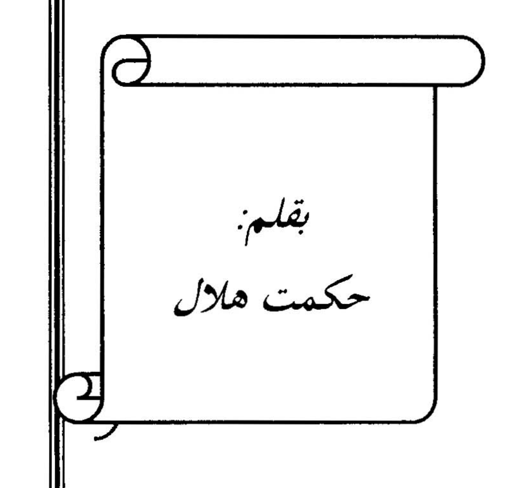

فصمتٌ طويلٌ.. وصبرٌ جميل
ويسألني هل نويت الرحيل؟
فأذكر ما كان بالأمس منه
وأذكر ما كان بالأمس مني
كأني صحوتُ على خيبتي
بعد حلمٍ طويل.. طويل
ويسألني هل نويت الرحيل؟
ويسألني أيَ وقتٍ يكونُ الرحيل؟
أيستعجلُ البعد عني
وينسى الذي كان منه ومني
إذاً سوف أرحلُ قبل انتصاف الطريق
لأن الذي قد تبقى من العمر
شيء قليل
وقد كنتُ قبلاً فتاةً تحبّ الدروب
تحبُ المواعيد
كانت تحبّ اللقاء
وما كنتُ يوماً أحبُ الرحيل
ولكنني اليوم أصرخُ من عمق صمتي
أجل يا حبيبي...
نويتُ الرحيل..
لأن الذي قد تبقى من العمر
شيء قليل.




بطرس البستاني

المعلم الخالد

١٨١٩-١٨٨٣



طلب العلم في صغره حتى أصبح فيه أوحد زمانه، كان عالماً عاملاً، ومجتهداً فاضلاً، وعبقرياً فذاً، شيخ العلماء وعمدة الأدباء، وكان يتحلّى بخلق أرقّ من النسيم، وكلام أعذب من الماء السلسبيل.

توارى الأديب العالم بطرس بن بولس البستاني، وتوارت معه تلك الخصال الحميدة، وتلك الشيم العالية الرشيدة، ذلكم هو اللبناني القديم الذي حمل هموم وطنه كالوسام يزين صدره، مدة حياته التي ليست بالطويلة، وبالرغم من ذلك فقد كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال.

كان أديباً فذّاً ، معلماً مميّزاً، صادقاً نزيهاً في أقواله وأعماله، فمنذ نشأته وهو يسير على طريق معبدة خالية من الأشواك والعقبات.

نبغ البستاني في سورية والعلم لا يزال طفلاً في مهده، فأخذ بالتعلّم والتعليم علماً وعملاً وسلوكاً، فنال مقاماً رفيعاً في مجال الأدب، وعُدَّ بين الناس من أهل العلم والفضل على اختلاف مذاهبهم وطرائقهم.

كان مخلص الطويّة، دمث الأخلاق، لين العريكة، صادق النية، محباً لوطنه، كريم الخلق متسامحاً، بعيداً عن التعصب وضيق الأفق، وكان سخياً ولا سيما على المشروعات الأدبية والوطنية، لطيف المعشر، سهل المعاملة، حسن المحاضرة، متخذ الصدق شعاراً، والنشاط عماداً، كما تصفه مجلة الهلال المصرية، وكان - مع ذلك - رفيع الجناب، وقوراً محترماً، لم يجالسه أحد إلا خرج وفي نفسه انعطاف نحوه، وميل إليه، وفي قلبه احترام وتقدير لصفاته وأعماله.

ولد المعلم بطرس بن بولس بن عبد الله البستاني عام ١٨١٩ في إقليم الخروب من

قضاء الشوف في جبل لبنان، وفي قرية دبية، وكان من أعيان الطائفة المارونية في عهد إمارة الأمير بشير الشهابي الكبير، فظهرت عليه علامات النجابة والذكاء منذ نعومة أظفاره، فأخذ في تلقي مبادئ العربية والسريانية على المعلم المرحوم الخوري ميخائيل البستاني. فعلمَ المرحوم المطران عبد الله البستاني مطران صور وصيدا آنذاك، بأن بطرس البستاني قد تفرّد بالذكاء والفطنة والاجتهاد والسلوك الحسن بين أقرانه، فأرسله إلى مدرسة عين ورقة بلبنان. فقضى فيها عشر سنوات حتى أتقن آداب اللغة العربية وقواعد اللغة والمنطق، والتاريخ، والحساب، والجغرافيا، وتعلم اللغات السريانية واللاتينية والإيطالية بالإضافة إلى الفلسفة واللاهوت (وكان قد بلغ العشرين من عمره) فأراد غبطة البطريرك للطائفة المارونية إذ ذاك إرساله إلى رومية للتبحر في العلوم الدينية، وكان والده قد توفي وهو في سن الخامسة من عمره، فلم تقبل والدته بإبعاده عنها. فعين مدرساً في مدرسة عين ورقة تحت رعاية البطريرك.

وكان المعلم بطرس البستاني، قد درس اللغة الإنكليزية وتعلمها من المبشرين الأمريكان في بيروت. فعين مترجماً للإنكليزية. وكان الأمريكان دعاة المذهب الإنجيلي فتعرف ببعضهم، ودخل في مذهبهم البروتستانتي.

وأخذ يعرب لهم بعض الكتب حتى توطدت علاقة الصداقة والمودة بينهم. وفي عام ١٨٤٦ افتتح الدكتور كارنيليوس فان ديك مدرسة عبية فاستعان بصاحب الترجمة في إنشائها، وعين معلماً فيها لمدة عامين (كما جاء في مجلة الهلال لجرجي زيدان) فألف في أثنائهما كتاباً في علم الحساب سماه (كشف الحجاب) طبع مراراً وذاع استعماله في سائر المدارس وكتاب (مصباح الطالب) الذي يقول فيه:

إن المقصود منه نفع أولاد المسيحيين، ولكن المعلم بطرس البستاني بدأ تلك المقدمة كما لو كان مسلماً فقال: (الحمد لله العلي الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)، وهذا يدل على روح المحبة والتسامح بين الأديان السماوية.

وكما تكشف أعماله عن حبه للوطن وتسامحه الديني، وترفعه عن الطائفية البغيضة، وأكبر دليل على ذلك ما نشره في (نفير سورية) عام ١٨٦٠ أيام المحنة والقتال بين النصارى والدروز قوله: (يا أبناء الوطن. الفظائع والمنكرات التي ارتكبها أشقياؤنا هذه السنة في ظرف مدة قصيرة وصلت أخبارها إلى أطراف المسكونة... يا أبناء الوطن إنكم تشربون ماءً واحداً، وتشمون هواءً واحداً، ولغتكم التي تتكلمون بها وأرضكم التي تطؤونها وهواؤكم وعاداتكم واحدة. فإذا كنتم لا تزالون إلى الآن سكارى من شرب دم إخوتكم في الوطن، أو طائشين من عظم المصائب عليكم، فلا بد من أنكم عما قليل تستفيقون من هذه الغفلة، وتدركون صالحكم، وخير بلادكم... وأدام الله بقاءكم. من محب للوطن بطرس البستاني)

وفي عام ١٨٦٣ أنشأ في بيروت مدرسة عالية سماها المدرسة الوطنية فتقاطر إليها الطلبة من سائر البلاد وذاع صيتها في الآفاق، فحصل على نيشان من الحضرة السلطانية.

ثم حقق وشرح ديوان أبيّ الطيب المتنبيَ رغم أنه لم يمارس الشعر طيلة حياته.

بعد ذلك عين ترجماناً في قنصلية أمريكا مع مباشرة التأليف والترجمة والوعظ والخطابة، فاستعان الدكتور غالي سميث الأمريكاني بصاحب الترجمة على ترجمة التوراة إلى العربية. ومن ثم باشر بتأليف معجمه (محيط المحيط) وفرغ منه سنة ١٨٦٩ وقد أخذه عن أشهر متون اللغة، ولاسيما الفيروز آبادي ويمتاز بما يلي:

١. رتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الثلاثي المجرد.

٢. جمع فيه كثيراً من الألفاظ العامية وفسرها بالفصحى.

٣. أوضح كثيراً من أصول الألفاظ الأعجمية التي كان أصلها مجهولاً أو مهملاً.

٤. أدخل فيه كثيراً من الاصطلاحات الحديثة.

طبع هذا المعجم في مجلدين كبيرين، واستخرج منه مختصراً سماه (قطر المحيط) في مجلدين لتلامذة المدارس. ولما تم طبع محيط المحيط، بعث بنسخة منه إلى الحضرة الشاهانية، ونسخة إلى الصدارة العظمى، وأخرى إلى نظارة المعارف بالأستانة. فوقع عمله هذا موقع الاستحسان، فأجازته الحضرة السلطانية بالجائزة الأولى التي ينالها المؤلفون وهي النيشان المجيدي من الدرجة الثالثة. ووهبته مئتي ليرة ذهبية عثمانية.

وفي عام ١٨٧٠ أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية سماها (الجنان) وعهد بإدارتها إلى ابنه سليم البستاني، وفي أواسط هذه السنة من عام ١٨٧٠ أنشأ صحيفة سياسية سماها (الجنة) وهي تعد ثاني أقدم الجرائد السياسية العربية ببلاد الشام، وقد سبقتها (حديقة الأخبار) في سنة ١٨٥٨ لصاحبها خليل الخوري صاحب المطبعة السورية. ومن بعدها أصدر جريدة (الجنينة). ومن أشهر أعماله المهمة (دائرة المعارف) وهو كتاب فريد لم ينسج على منواله في اللغة العربية في عصره، فشرع فيه عام ١٨٧٥ يعاونه ولده سليم وبعض الكتاب، فأصدر منه ستة مجلدات، وتوفي وهو في بدء السابع.

وصدر منه بعد وفاته السابع والثامن والتاسع، وحالت دون إتمامه موانع أدت إلى تأجيله.

وبعده تعاون ابنه سليم مع ابن عمه سليمان خطار البستاني، فأصدرا العاشر والحادي عشر وتوقف العمل. وقد رأس بطرس مدرسة الأحد في بيروت خمس عشرة سنة، ترجم لها عدة رسائل دينية، دعا فيها إلى تربية الأولاد والإمساك عن المسكرات.

وسن قانوناً للمدرسة الداودية التي أنشأها دواد باشا، وكان يحث كثيراً على تعليم النساء، وهو أول من خطب في هذه الموضوع بالشرق، وله خطب ومقالات كثيرة تلاها على منابر بيروت وفي جمعياتها.

كان رحمه الله مربوع القامة، مع ميل إلى الطول ممتلئ الجسم سميناً، قوي البنية، حازماً نشيطاً، ثابت الجنان، قادراً على الأعمال، لا يأخذه ملل ولا ضجر. فقد نبغ في وقت لم تتوفر فيه معدات الطبع والنشر، ولا اعتاد فيه الناس مطالعة الجرائد والإقبال عليها، ومع ذلك عمل أعمالاً لا يستطيع القيام بها مجموعة من المؤلفين.

فكان يؤلف ويعلم ويترجم ويدير أعماله، ويكاتب عماله وأصدقاءه، ويدير مدرسته علماً وعملاً، ويستقبل زائريه بوجه بشوش، قلّ أن

يرجع أحدٌ من بين يديه إلا شاكراً حامداً، ممتناً، ومقدِّراً هذا العالم الجليل.

آراء الأدباء والكتّاب فيه

١. قال الأستاذ ملحم إبراهيم البستاني في (كوثر النفوس):

إن المعلم بطرس البستاني كان في عصره شيخ العصامين، مات أبوه وهو صبي صغير، فما إن بلغ أشده، ووعى حقيقة أمره، حتى دفعته نفسه إلى الإقدام، فدأب على العمل ولم يقعده عنه إلا منيته، قيل: إنه كان يشتغل الليل والنهار، ولا يترك من يومه إلا ساعات قليلة للراحة حتى لقبوه بالجبار، وقد فاجأته المنية وهو في الرابعة والستين من عمره.

٢. وقال حنا أبو راشد صاحب القاموس العام:

(كان المعلم بطرس البستاني معلماً حكيماً ورباناً ماهراً، عرف كيف يخدم ذويه وأمته، ويقودهم إلى شاطئ الخير والفلاح والسلام. فكان بحق أبا النهضة الأدبية الحديثة ورسولها دون منازع، وفي حياته عبرة وذكرى لقوم يعقلون).

٣. أما جرجي زيدان صاحب مجلة الهلال فإنه قال:

(إن بطرس البستاني أحد أركان النهضة العلمية في بلاد الشام، وكان أعظم الرجال رفيع الجناب وقوراً محترماً، لم يجالسه أحد إلا خرج وفي نفسه انعطاف إليه، وفي قلبه احترام له، فكان حيثما ذكر اسمه قرن بالمدح والثناء والتجلّي والوقار).

٤. وقال فيه أديب إسحق وهو يرثيه:

أجل إن المصيبة فيك مصيبة للوطن، يا من أنفقت العمر في خدمته، مقدماً مجتهداً، صابراً متجلداً، متعففاً مستقيماً، كنت فينا مثال الفضل والاجتهاد ونموذج البراعة والأدب، أولست أول من خط على صفحات القلوب رسم صحف الجنان (حب الوطن من الإيمان): [من الخفيف]

نَمْ سَعيداً يا مَنْ قَضَيْتَ فَقيداً ... بِجَميلٍ قَدَّمْتَ بَيْنَ يَدَيْكا

أَنْتَ أَحْسَنْتَ في الحَياةِ إِلَيْنا ... أَحْسَنَ اللهُ في المماتِ إِلَيْكا

٥. ورثاه الدكتور كرنيليوس فان ديك الذي كان يلازمه ويساكنه ويؤاكله ويشاربه زمناً طويلاً. كانا معاً أخوين متضامنين. فرثاه بقوله: [من البسيط]

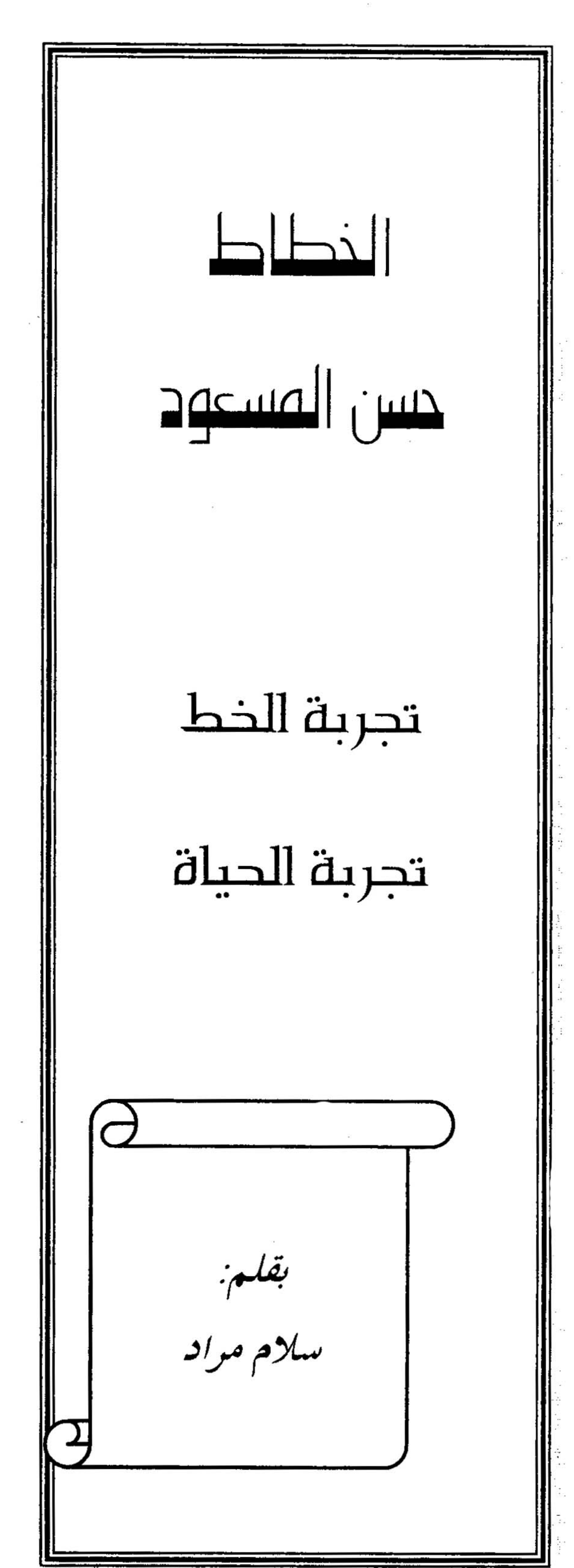
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ في نَقْدِ الرِّجالِ يَدٌ ... انْظُرْ إِلى المَوْتِ كَيْفَ المَوْتُ يَنْتَقِدُ

يَدُورُ في الأَرْضِ حَوْلَ النّاسِ مُلْتَمِساً ... كَريمَ قَوْمٍ وَلا يَرْضى الّذي يَجِدُ

(وفي مصيبتنا إنه لا يرضى بما يجد ولو رضي لقدمنا له بدل الواحد عشرة، ولكنه ينتقي من الغابات أعلى أرزها، ومن المروج أزكى رياحينها).

٦. وقال فيه يوسف أسعد داغر:

(إن بطرس البستاني كبير المهذبين والمثقفين في العصر الحديث).



بدأ الخطاط مسيرته الطويلة من جنوب العراق حيث باشر الخط، واتجه إلى بغداد سعياً إلى الفن التلويني، إلى الصورة، من دون أن ينقطع عن الخط، وفي عام ١٩٦٩ دخل مدرسة الفنون الجميلة في باريس، حيث زاول الفن التلويني، غادر المدرسة ومعها أيضاً غادر الصورة، بقي في بارس ولكنه عاد إلى الرموز الخطية التي بدأ منها انطلاقه.

يقول ميشال تورنيه من أكاديمية غونكور الفرنسية، أن حسن المسعود "يبدأ بخطوط مقتضبة، ضمن فسحة محدودة كلاسيكية المظهر، يستبطن نصوصها الضيف والتوق، لكي تؤول إلى تنام يتجاوز حدود الصفحة، حيث للخط حركية اللوحات المعاصرة، ونص يزخر بالأمل".

إن لكل حرف في الخط العربي التقليدي، بناء يرتبط ببناء حرف آخر، فتشكل الحروف في ما بينها الكلمة. وتعدد الكلمات وتشابكها ليقولدنا إلى أشكال معمارية جميلة، يطلق عليها اسم التشكيلة الخطية أو التكوين الخطي.

يكرر بعض الخطاطين التشكيلة نفسها عدة مرات ويعودون إليها أحياناً بعد سنوات محاولين الوصول إلى الكمال في معالجة الحروف وقوتها. والفراغ المحيط بها ونغم الشكل العام، هنا تبرز طاقة الخطاط وإمكانياته، لنعرف هل تخطى ما هو معروف من التشكيلات الخطية القديمة، أو أنه خلافاً لذلك، يكرر ما يشابه تشكيلات الماضي، وكذلك نبين عند الخطاط صدى شعوره بالجمال، ورهافة الذوق وَثراء الذاكرة البصرية التي تحوي أجمل الأشكال وأمتنها.

ولادة التشكيلات الخطية تحت أصابع الخطاط، توحي كأنه يخرج أشكالاً يختزنها في مخيلته إخراجاً عفوياً تلقائياً، بينما هي نتيجة

تفكير عقلاني أيضاً، إنه يأخذ الجملة ويحطمها، ويعيد بنائها ثانية، ولكن عبر رؤاه، فتكون التشكيلة الخطية كمرآة تعكس أفكاره وأحاسيسه الداخلية، وذلك بإعطاء الخط مظهر الخفة، أو الثقل، بزيادة البياض أو السواد الكثيف لرحفو، وبتفضيل الانحناءات في الخط أو رشاقة الخطوط المنتصبة، وبتصعيد حرارة الديناميكية، أو بإعطاء برودة للسكونية، ترينا التشكيلة الخطية طبيعة الخطاط وتبدي عبر عمله ما هو مخفي من عوالم طفولته الغامضة.

إن إمكانيات التحطيم والبناء للسطر فتحت الباب واسعاً أمام التعبير الفني في مجال الخط العربي.

فالتشكيلة الخطية يجب أن تكون حيوية وحركية، كما لو كانت بعض الحروف وتمنعها، وإذا افتقرت التشكيلة إلى هذه الديناميكية تكون رتيبة مُملة للعين، وخلافاً لذلك ترى التشكيلية نعش نفس المشاهد، بل تنشط تطلعه إلى الجمال، وتحمله على التخيّل أكثر فأكثر برأي ميشال تورنيه تعني الديناميكية هنا بالتالي مقدار الطاقة المختزنة داخل هذه التشكيلة، وأن مجموع الحروف والكلمات داخلها يطالعنا كعمل فني مجرد، يتحسسه ويفسره كل مشاهد حسب عالمه الداخلي.

أما قراءة النصوص نفسها، فإنها صعبة لأول وهلة، ولكن في أكثر الأحيان يقود التمعن والتأمل الطويل لمن يقرأ العربية إلى اكتناه النص.

في حوار مجلة الأفق العدد ١١٨- ٢٥ أيلول ١٩٨٦ مع الخطاط حسن المسعود يقول: استعملت الحرف العربي كإناء وضعت في آلامي وآمالي. واليابانيون يقولون بهذا الصدد "إن الخط هو الإنسان نفسه" والأمر نفسه بالنسبة لي فحين انعكست تجربتي كإنسان على الخط، أصبح الخط مأوى للحظات المأساوية والمغرمة والمتطلعة التي عشتها، الحرف العربي يمتلك قدرة كبيرة جداً يستطيع الفنان أن يبني أعماله الفنية تحت أفيائها، ويمكن أن تظل هذه الأعمال تجسيداً للحياة الانفعالية المزدوجة لها أصالتها ومعاصرتها الفنية المتميزة.

ويميز الخطاط حسن مسعود بين الخط العربي والخط اللاتيني وبرأيه يكمن الفرق أن الحرف اللاتيني استخدم في الطباعة منذ بداية القرن الخامس عشر بينما لم تدخل المطبعة إلى المجتمع العربي والإسلامي ، إلا في القرن التاسع عشر وبشكل محدود جداً، وهذا يعني أن مهنة الخطاط في المجتمع الأوروبي اختفت في الوقت الذي لا يزال الخط العربي حيّاً ويمتلك صلته المباشرة بالواقع الديني المعرفي في حياة الناس، ويوضح المسعود أن هناك اختلاف ما بين الخطاطين العرب والمسلمين في الماضي والذين كانوا ينتشرون في كل مكان، وما بين العديد من الخطاطين في وقتنا الحاضر، فهناك خطاطون لا يعرفون أكثر من أسلوبين أو ثلاثة وهؤلاء لا يواصلون البحث الفني في القدرات والطاقات التي تكمن خلف هذا الكنز الفني الكبير أنهم بصريح العبارة، ليسوا أكثر من حرفيين.

الخطاط حسن المسعود يقول: لقد أصبح الحرف العربي هو مهنتي، وأصبح مورد عيشي وطموحاتي، فأنا أتعامل معه بخصوصية كبيرة وهذا التعامل من شأنه أن يجعلني أكثر ورقة وتصميمية، فأنا أعمل يومياً ما لا يقل عن عشر ساعات، وقد زادت اهتماماتي في الفترة الأخيرة بالحرف اللاتيني والحرف الصيني ولكن هذه الاهتمامات لا تزال من

الخارج فأنا أراقبها لأن ذلك يشكل إثراء نافعاً ومفيداً لعملي مع الحرف العربي.

في لقاء لحسن المسعود مع خطى شمس بين مسيرة الخط العربي، سواء تجربة الخطاط الناسخ، الذي أدى دور المطبعة اليوم، وعرج على تجربة الخطاط المزين، الذي زين جدران المعالم المعمارية، أو حاجيات الاستعمال اليومي والكتب.. وهذا النوع من الخطاطين كان يستوحي الحرف ويستعمله لإبداع تكوينات ذات قيمة تشكيلية تجريدية، ففي الأعمال تتعانق الكلمات والحروف قيماً بينها فيقصر حرفاً ويمد آخر وتخسر بذلك القراءة لصالح القيمة الجمالية.

وبخصوص تطور مسيرة الخط العربي، بين أنه هناك أساليب قديمة للخط عبرت قروناً عديدة ولا تزال مستمرة حتى اليوم، وذلك يعود لجماليتها وقدرتها على مطاوعة الزمن الحديث، بينما هناك أساليب أخرى انحسرت وضاعت أو ندر استعمالها.

هناك من ينادي بعدم تغيير الخط العربي، وكأنما الخطاطون هم مطابع وليسوا ببشر، هذا برأي الخطاط حسن المسعود غير صحيح، فالخط العربي تغير كثيراً وتطور على أيدي الخطاطين. وفي كل مرحلة كان يحدث فيها تحول اجتماعي.

كان هذا التحول ينعكس على فن الخط، لذلك نجد أن خط القرن التاسع في بغداد لا يشابه خط القرن السابع في مكة ولا يشابه خط القرن الرابع عشر في مصر، ويختلف كثيراً عما توصل إليه خطاط اسطنبول في القرن الثامن عشر.

أما كوفي المصاحف في القرن التاسع، فإنه يختلف عن الكوفي المتموت في جوامع القاهرة، ويختلف أيضاً عن الخط الكوفي المعمول بالطابوق في معالم سمرقند.

وهكذا نجد أن الخط في حركة تطور مستمرة، في عصرنا الحالي يعيش في الخط أزمة خاصة ، كما كل الفنون الإسلامية، فلقد فقدنا الكثير من الاختصاصيين، ولم يعد عدد الخطاطين المبدعين يتناسب مع عدد السكان في بلدان الألغباء العربية.

إن عالم الخط عالم واسع جداً، صعب المداس، والجوانب التجريدية فيه تلعب دوراً أهم وأكثف من الجوانب المادية، فالفراغ المحيط بالحروف أهم وأعلى قيمة من الحروف النابعة من النغم الكافي، والطاقة الآتية من تلاقي الحروف وتشابكها.

ومن الناحية التاريخية.. نحن نفتقر للوثائق التي تشهد على مراحل وأساليب كثيرة، فأكثر الأسرار الفنية دفنت مع الخطاطين الكبار، وأرقى الخطوط تسكن مستودعات المتاحف ومخابئها ولن يتمكن الكثير من الناس من رؤيتها بسهولة. أو ربما لن تشاهد أبداً.

وتدخل الناحية التقنية إلى جانب المعلومات النظرية والمشاهدات الجمالية والفلسفة الشخصية لتعطي أهمية تتراوح بين خط وآخر وبين فنان وآخر.

والناحية التقنية هي الناحية الأهم في الخط، ولولاها لأصبح كل النقاد خطاطين. وتحتاج معرفتها لزمن طويل من الممارسة والتمرين على حروف الأقدمين لمعرفة أسرارها الهندسية والجمالية، بعد ذلك يضيف الخطاط إليها من طبيعته وتجربته، فيكون الخط بذلك وسيلة تعبير معاصرة لزمن الفنان متضمناً ردود فعله إزاء أحداث عصره.




وفاء..

شعر: أحمد رضا رحمة

ساحرةَ العينينِ يا شاديهْ!
أفديكِ بالعينِ وبالثانيه
في سهرتي أنظُمُ عقدَ الهوى
شعراً جميلَ الحرف والقافيهْ
كم مرّةٍ عيناكِ قد حَوَّلَتْ
عنّي حديثَ النظرةِ الحاكيهْ!
آسرتي وجهُكِ طلقاً بدا
كالفُلِّ في نضرتِه الزاهيهْ
لكنّني كنتُ لهُ راسماً
مصوِّراً ألطافَهُ الخافيهْ
إيحاءُ عينيكِ سَباني ولمْ
يرحم نداءَ القلبِ يا غاليهْ
مشاعري نحوَكِ أبديتُها
دقّاتُ قلبي ثرَّة حاميه
أحسستُ أنداءَك تروي فمي
تَبُلُّ أشواقَ الهوى الظاميه
قوامُكِ الجَذّاب في زهوِهِ
كأنَّهُ مِرآتي الصافيه
ما أعظم الأمَّ التي أحسنتْ
صقلكِ يا أُنشودتي الباقيه!

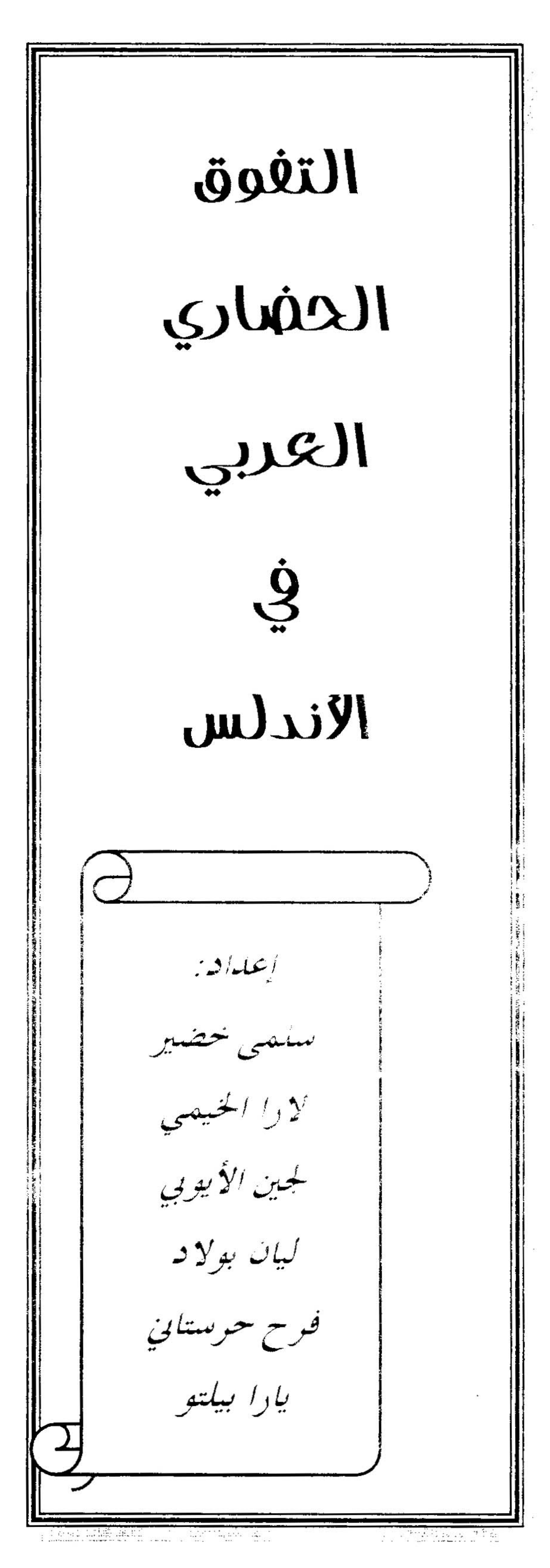






قلبـــك مـــني مشـــفقٌ حـــائرٌ
في الحـــبِّ لا يكـــذبُ إحساســـيهْ
أصـــابني منـــك ســـهامُ الهـــوى
مـــا أروعَ المرمـــيَّ والراميـــهْ
هـــذا هـــو الحـــبُّ الـــذي قـــد بـــدا
يفـــيض بالصـــحّةِ والعافيـــهْ
أوّاهُ يـــا ريحـــانتي مـــا الـــذي
يجـــولُ بـــينَ الأضـــلُعِ الســـاجيهْ؟
في نظـــرةٍ منـــكِ جمـــالُ الـــدُّنا
تحمِـــلُ آفـــاقَ الـــرؤى الســـاميه
إنّـــي علـــى العهـــدِ الـــذي شـــدَّني
إليـــك يـــا واحـــتي الناميـــه
أعـــيشُ مِـــنْ أجلِـــكِ أحلـــى المُنـــى
أحمِـــلُ أحـــلامَ الصِّـــبا الباهيَـــهْ
عينـــاكِ قنـــديلانِ في معبـــدٍ
شـــيَّدتُهُ في أضـــلُعي الحانيـــه
وشـــعرُكِ الليلـــيُّ - فدّيتُـــهُ -
أحـــاطني بالهالـــةِ الســـارية
الشـــاعرُ اليـــومَ بعيـــدُ المَـــدى
في فكـــرهِ أخيلـــةٌ ضـــافيهْ
أشـــعارُهُ في صـــوغِها نَغْمَـــةٌ
وهـــيِ لأشـــواقِ الصِّـــبا راويـــهْ



البناء والهندسة

أ- بناء المدن:

- قرطبة

مدينة أندلسية تقع في الغرب الإسباني، تتفرع سفوح جبالها من سلسلة جبال سيرا مورينا، الممتدة شمالي المدينة. وتمتد قرطبة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، الذي ينحني طفيفاً في مجراه نحو الغرب مؤلفا أهم طريق طبيعي في أسبانيا الجنوبية وقرطبة مدينة إيبيرية قديمة البناء، كان اسمها (إيبيري بحت) وترجم بالعربية إلى قرطبة.

تأسست قرطبة في العصر الروماني عام ١٥٢ ق.م على نهر الوادي الكبير وذاعت شهرتها منذ الصراع بين قرطاجنة وروما ثم أخذت قرطبة تفقد شيئا فشيئا أهميتها أمام طليطلة، التي تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع الميلادي.

وفي عام ٩٣هـ/ ٧١١م فتحت قرطبة أبوابها لجيوش المسلمين بقيادة طارق بن زياد. وأصبحت قرطبة، بعد فتح المسلمين لها، حاضرة أسبانيا الإسلامية، واستعادت مكانتها القديمة التي سلبتها إياها طليطلة.

حاضرة الخلافة الإسلامية في الأندلس:

لقد بلغت قرطبة في عصر الخلافة الأموية أوج عظمتها، وتألقها الحضاري في حين كانت أوروبا ما تزال غارقة في أعماق التأخر والجهل والانحطاط، واعتبرت قرطبة أعظم مدن الأندلس والمغرب عمراناً، وثالثة مدن العالم الوسيط كبر مساحة، فيها خلاصة حضارة الأندلس من أهم معالم وآثار قرطبة، قصر قرطبة القديم الذي اتخذه عبد الرحمن الداخل مقرا له، قصر الرصافة - والمسجد الجامع - ونهر قرطبة الكبير - وحمامات قرطبة وكان يوجد بها ٩٠٠ حمام في الوقت الذي كانت أوروبا تعيش قمة الجهل وكثرة الأمراض - وهناك دار الروضة وهي قصر عبد الرحمن الناصر. أما تاريخ قرطبة الإسلامية فيبدأ منذ عهد السمح بن مالك الخولاني الذي ولي الأندلس عام ١٠٠هـ/ ٧١٩م، وهو الذي رفعها إلى مصاف الحواضر الكبرى. وفي عام ١٣٩هـ/ ٧٥٦ م بدأ نجم قرطبة بالصعود عندما أعلنها عبد

الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل عاصمة وقد جعلها مهداً للعلم والثقافة ومركزا للفنون والآداب في أوروبا كلها، فقام بدعوة الفقهاء والعلماء، والفلاسفة والشعراء. فكانت أكثر مدن أوروبا سكاناً. وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر من بعده، وصلت قرطبة إلى مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل ولقد نافست قرطبة في عهدهم بغداد عاصمة العباسيين، والقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والقاهرة عاصمة الفاطميين.

أهم معالمها المعمارية:

منذ أن تولى عبد الرحمن الداخل حكم قرطبة اعتنى عناية فائقة بالإنشاء والتعمير بالمدينة، فحصن العاصمة وزينها بالحدائق وأنشأ مدينة الرصافة ومقرها العظيم في الشمال الغربي على بعد ٤ كم من قرطبة، وقد أحاطها بالحدائق الزاهرة وأطلق عليها ذاك الاسم تخليدا لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بن عبد الملك بالشام. كما أقام عبد الرحمن الداخل "دار السكة" لضرب النقود على النحو الذي كانت تضرب عليه نقود بني أمية في المشرق من حيث الوزن والنقش.

الأسوار: كما بدأ عبد الرحمن الأوسط عام ١٥٠هـ/ ٧٦٧م في إنشاء سور قرطبة الكبير الذي استمر العمل فيه أعواما كما أنشأ مساجد محلية كثيرة في قرطبة وغيرها وعلى رأسها المسجد الأموي الجامع الذي بدأ في إنشائه عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م. ويقع هذا المسجد في الجهة المقابلة لقصر الإمارة وبينهما مساحة واسعة استغلها عبد الرحمن في إنشاء قصر خاص لنفسه وعدد من القصور الصغيرة لآل بيته أحاطها بالحدائق الغناء وسور يدور حولها. وقد امتدت هذه القصور حتى وصلت إلى ضفة نهر الوادي الكبير فبنى عبد الرحمن قصور الإدارة ناحية النهر. كما فتح باباً في الشارع بين النهر والسور سمي "باب السدة" وجعله للجمهور، وبعد أن تولى عبد الرحمن الثالث الحكم عام ٣١٧هـ/ ٩٤٩م أصبحت قرطبة من أكبر المدن في أوروبا وأكثرها حضارة وثقافة وعلما، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة. وكانت قرطبة في ذلك الوقت تنقسم إلى جانبين كبيرين: جانب شرقي وجانب غربي. وعند اتساعها تجاوزت نطاقها القديم جنوباً في الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير، وشرقاً فيما وراء باب رومية.

القناطر: ومن معالمها الحضارية تلك القنطرة التي كانت تجاه المسجد الجامع من الناحية الجنوبية وهي قنطرة رومانية الأصل، جددها المسلمون أيام السمح بن مالك أمير الأندلس وجددت بعد ذلك غير مرة وهي قائمة على ستة عشر عقدا وهي تربط قرطبة بضاحيتها المسماة (حي روح القدس) ومازالت هذه القنطرة تحتفظ بكثير من معالمها الأندلسية إلى الآن.

القصور: من الآثار الباقية منية العامرية وهي تقع على سفح جبل قرطبة على بعد تسعة كيلو مترات غربي قرطبة وثلاثة فقط إلى الغرب من مدينة الزهراء. وتنسب العامرية إلى ابن أبي عامر الذي بناها في عام ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م، وأحاطها بالجنان والبساتين، ثم أدار عليها سورا منيعاً. وكان قصر العامرية يتكون من قاعات ثلاث متوازية، يحيط بها من الشرق والغرب غرف مربعة تتوزع ثلاثة في كل من الجهتين، وفي الشمال الشرقي يقوم بناء آخر ملاصق لهذا البناء ينقسم بدوره إلى غرف صغيرة لعلها كانت مرافق أو ملحقات بالقصر، وكان يتصل بهذه الغرف بركة كبيرة طولها (٤٩,٧٠) متراً، وعرضها (٢٨) متراً، وعمقها (٣) أمتار، أقيمت كلها من الحجر. أما أشهر قصور قرطبة فقصر الإمارة وقصر الرصافة وقصر دمشق وقصر الروضة.

المساجد: اشتهرت قرطبة بالعديد من الآثار التي تجسد روعة المعمار وتعد شاهداً على الحضارة الإسلامية في ذاك الوقت.

الحمامات: وكان أهل قرطبة يسترخون في حمامات عامة وخاصة كلها مدفأة وتجري فيها المياه الساخنة والباردة. وكانت الحمامات العامة تعتبر من أهم المنشآت المدنية في المدينة لكثرتها وتعددها من جهة، ولارتباطها الوثيق بالطهارة المتأصلة بعمق في الإسلام من جهة أخرى، وقد تميزت قرطبة بوجه خاص بكثرة حماماتها حتى

قيل إن عددها بلغ ٣٠٠ حمام. وقد بلغ عدد حمامات قرطبة بعد أن تناهت في الاتساع في عصر المنصور ابن أبي عامر حوالي ٩٠٠ حمام.

- الزهراء:

وكان من أهم ما شاده في الأندلس بناء مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر في الأندلس بناءً على طلب جاريته الزهراء التي اشتهت أن يبني مدينة يسميها باسمها كي تعيش فيها. وبما أنه كان يحبها كثيراً فقد بنى لها هذه المدينة وجعلها متنزهاً ومسكناً لها ولحاشية أرباب دولته، وقد بدأ ببنائها سنة ٩٣٦م على قطعة أرض مساحتها ١١٢ هكتاراً تقع في غرب مدينة قرطبة، وامتدت من الجبال الأكثر ارتفاعاً في سلسلة سيرامورينا، وأشرف على العمل في تلك الفترة الحكم الثاني، ابن عبد الرحمن الناصر، واشترك في بنائها عشرة آلاف عامل كانوا يضعون يومياً ستة آلاف حجرة، وجلب إليها الرخام بألوانه كافة من مدن متنوعة، سواء في المشرق أو المغرب أو من مدن أندلسية أخرى، كما رصعت بالعاج والذهب وأحجار أخرى بارعة الجمال، وتم تكييفها مع جغرافية الأرض التي أنشئت عليها، إذ شيدوا فيها شرفات عدة جاءت على شكل درج، ابتداءً من سفح الجبل حتى السهل، وجعل شكلها الهندسي مستطيلا حيث بلغ طولها ١٥٠٠م ممتدة من الشرق إلى الغرب وعرضها ٧٥٠م، وأحيطت بسور من جميع الجهات باستثناء الجهة الشمالية، وكانت تتكون من ثلاث مناطق، أهمها المنطقة العليا التي ضمت القصر الملكي (قصر الخلافة) البالغ الجمال، إضافة إلى أماكن إقامة أصحاب الرتب السامية ومسؤولي المصالح الإدارية والحكومية والعسكرية. أما المنطقة الوسطى فكانت تشمل حدائق وجنائن بديعة جداً، سواء من حيث تنظيمها أم من حيث تنوع أشجارها وتفتح أزهارها. بينما احتفظت المنطقة السفلى بمسجد المدينة الذي ضمّ خمسة أبهاء جيدة الصنع، وبهواً ذا صحن مكشوف مفروش بالرخام الخمري، وفي وسطه فوارة يجري فيها الماء، كما ضمّ منبراً بديعاً صنع بشكل بارع الحسن.

مدينة أثرية وسياحية:

وبعد مضي تسعة قرون على تدميرها، وبالضبط عام ١٩١١م، لاقت بقايا المدينة المدفونة الضوء من جديد نتيجة التنقيبات التي جرت فيها، وقد وجد الباحثون، إضافة إلى بعض المعالم العمرانية القليلة الباقية، قطعاً تذكارية مثل أواني سيراميك مزخرفة بلون أخضر وبعض الجرات الملطية بألوان براقة وترساً مصنوعاً من البرونز، كان يستعمل كصنبور لخروج الماء. وقد وضعت هذه اللقى في متحف الآثار المحلي في مدينة قرطبة الذي يضم كثيراً من القطع التذكارية العربية الإسلامية العائدة لفترة حكم العرب لقرطبة. هذا وتحظى مدينة الزهراء باهتمام كبير من قبل علماء الآثار ومن بلدية مدينة قرطبة ومن حكومة إقليم الأندلس، حيث تتابع لجان البحث تنقيباتها ويرمّم بعض المعماريين جدران وأراضي بعض مبانيها مثل صالون عبد الرحمن الناصر ضمن خطة طويلة وشاقة جداً، كما يعدّ سنوياً كثيراً من المنشورات السياحية عنها، التي تساعد على إعادة اهتمام الزوار والسياح بها، وخاصة من العرب والمسلمين الذين يحنون إلى رؤية آثار أجدادهم.

الزاهرة:

مدينة متصلة بقرطبة من البلاد الأندلسية، بناها المنصور بن أبي عامر لما استولى على دولة خليفته هشام. وقد تم بناء مدينة الزاهرة في سنة ٩٧٩م، وانتقل إليها المنصور بحاشيته وخاصة من الحرس وشحنها بأنواع الأسلحة ثم نقل إليها خزينة الدولة ودواوينها وأقطع ما حولها لكبار رجالات الدولة من عسكريين ومدنيين فساروا سيرته وابتنوا القصور الفخمة وعمروا المتنزهات الواسعة وتنافس العامة في البناء حولها حتى اتصلت عمائرها بالعاصمة قرطبة. لم تعمر مدينة الزاهرة طويلا فقد كان عمرها رهيناً بعمر الدولة العامرية فما إن قتل عبد الرحمن الملقب شنجول حتى عم الخراب عمائر هذه المدينة ونهبت قصورها وانتهت رسومها في الفوضى التي عمت البلاد سنة ٣٩٩هـ واندثرت بهذا التخريب تلك المدينة اندثاراً يختلف عن ذلك الذي حل بالزهراء إذ عثر على الكثير من قطع المدينة الأخيرة مبعثرة

في بلدان أخرى وتم التعرف عليها بفضل ما عليها من كتابات بينما لم يبق شيء من مدينة الزاهرة سوى حوض من المرمر مكسور وغير كامل وصل إلى اشبيلية ويحفظ في المتحف الوطني بمدريد

ب- بناء المساجد:

إن نمط العمارة ذا الطابع الإسلامي المحض هو الذي استخدم في تشييد المساجد، حيث أن الآجر العربي والرخام والمرمر والجبس الزخرفي هي المواد المفضلة لبناء بيوت الله.

وقد كان الأصل المتبع في بناء المساجد جميعها هو مشابهتها لمسجد النبي مُحمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كان عبارة عن جناحين أحدهما مغطى والآخر مفتوح على الهواء الطلق. هذا المخطط البسيط تم تطويره تدريجياً إلى أن تحوَّل إلى مسجد جامع بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى، بُغيَة أدائه المطلوب لجميع الوظائف المنوطة به من صلوات وغيرها، خدمة لعامة المسلمين على الوجه الأكمل.

وكل المساجد كانت مستقبلة للقبْلة أي باتجاه بيت الله الحرام في مكة المكرمة، وكان في جدرانها الأمامي محراب، من أين يَؤمُّ الإمام المصلين. كما كانت تحتوي على منارة أو صومعة، من أين ينادي المؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم والليلة. وكانت هذه المساجد مزودةً بفناء أو صحن، أين توجد عدة ينابيع للوضوء أو مواضئ.ويسمى الجزء المغطى من المسجد حَرَماً، وهو عبارة عن قاعة كبيرة واسعة ذات أروقة عمودية متجهة نحو القبْلَة.

هذه الأروقة تطول للغاية في بعض الأحيان لتتحول في نهايتها إلى دائرية متصلة بصحن المسجد.ومن أبرز المساجد الكبرى ذات الشهرة في الأندلس يأتي بلا جدال في المرتبة الأولى مسجد قرطبة الجامع، أما أصغرها فهو المسجد الملكي الذي لم نعثر على اسمه العربي - قسم الترجمة.

المسجد الجامع:

ليس لهذا المسجد ميزة دينية زائدة على أمثاله من سائر بيوت الله.. إلا أنه لقي من اهتمام أمراء الأندلس وخلفائها ما لم يلقه غيره من مساجد الدنيا.. اللهم إلا الحرمين الشريفين.

كما كتب عنه المؤرخون، ونعته الوصافون بما لم يكتب وينعت به مسجد آخر في الدنيا، إلى الحد الذي كدنا لا نصدق ما قيل، أو أن نعتبره مبالغة واضحة، لولا أن هذا المسجد لا يزال ماثلا للعيان شاهداً على صدق ما قيل عنه..

إنه المسجد الجامع في قرطبة، قمة من قمم الفن المعماري العالمي على مر العصور، وأروع الآثار الإسلامية الباقية على الإطلاق.

مسيرة طويلة... قبل الكمال:

ولقد استغرق بناء مسجد قرطبة حتى وصل إلى أوج كماله أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمان، فقد بدئ في إنشائه على صورته الحالية أيام عبد الرحمن الداخل سنة /١٧٠/ هـ واستغرقت المرحلة الأولى منه سبع سنين، بينما تمت المرحلة السادسة والأخيرة من بنائه أيام المنصور عام ٣٧٧ هـ أي بعد مئتي عام.

فإذا علمنا أنه كان مسجداً قائما من قبل منذ أيام فتح الأندلس عام ٩٢هـ، وأنه لم يفت أميراً في قرطبة توسيعُه والزيادة فيه إلى أيام المنصور، كان ما قلناه عن عمر بنائه حقيقة لاخيالا.

أسباب وجيهة وراء الاهتمام البالغ:

وكان مبعث اهتمام أهل الأندلس بجامع قرطبة وتعظيمهم له أن ثلة من خيار التابعين من رواد الفتح الأول للأندلس، وعلى رأسهم حنش الصنعائي التابعي الجليل، هم الذين اختطوا المسجد، ووقفوا على تحديد قبلته باتجاه الكعبة المشرفة، بعد أن شاطروا النصارى نصف كنيستهم التي كانت في موقعه، والتي كات تسمى (شنت بَنجنت) أي القديس منصور، فأخذوا نصفها وأبقوا لهم نصفها الآخر، وكان المسجد في تلك المرحلة في منتهى البساطة.

ولما كثر المسلمون في قرطبة، ونزل فيها أمراء العرب من جند الشام ضاق بهم مسجد قرطبة، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة، ليؤمنوا للناس مكاناً مظللاً للصلاة فيه إلا أن

مجموع تلك السقائف قد ضايق المصلين، وشوه المنظر، لتلاصقها وقصر أبوابها وتطاحن سقفها، حتى ما يمكن أكثر المصلين من القيام على اعتدالٍ لتقارب سقفها من الأرض.

الخطوات الأولى في الصرح المشيد:

وبقي الأمر هكذا طيلة ثمانين عاماً، إلى أن كانت إمارة عبد الرحمن بن معاوية المرواني المسمى بالداخل، بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق، فاشترى من النصارى النصف الآخر من كنيستهم، وهدم البناء القديم للمسجد، ورفع مكانه بناء جديداً، وصرف همته ليكون هذا المسجد الجديد الجامع في حاضرة ملكه (قرطبة)... تحفة فريدة من حيث بهاؤه ودقة زخارفه ورواء منظره، فأرسل في طلب الأعمدة اللازمة له من قرطاجنة وايطاليا، كما طلب الرخام الموشى من أربولة واشبيلية في الأندلس ومن مدينة قسطنطينية، حتى اجتمع له الرخام الأبيض مع المرمر الشفاف الوردي أو الأخضر، حتى بلغ ما أنفقه ثمانين ألف دينار ذهبية، غير مادفعه للنصارى ثمن كنيستهم وهو مئة ألف دينار.

مساحات وأبعاد البناء الأول:

وكان بيت الصلاة في مسجد قرطبة في بنائه الأول هذا يبلغ ٧٥ متراً طولاً و٦٥ عرضاً، يضاف إليه صحنٍ فسيح تعادل مساحته مساحة بيت الصلاة تقريباً.

وكان بيت الصلاة مكونا من ١٢ رواقاً موازيا لجدار المحراب وتسعة أروقة عمودية على جدار القبلة وكان الرواق الأوسط أوسع من بقية الأروقة...

وقد عهد عبد الرحمن الداخل إلى عبد الله صعصة بن سلام - صاحب الصلاة في المسجد - بفرش صحن المسجد الجامع بالأشجار، حتى جاء بناء هذه المرحلة من المسجد رائعاً جميلاً، نتيجة تعدد ألوان الأعمدة والعقود، من جهة وارتفاع السقف فوق الأعمدة مع ما نقش على الخشب الملبس على السقف من آيات قرآنية ورسوم زاهة بألوان بديعة... وقد استغرقت المرحة الأولى من جامع قرطبة ثلاث سنين.

تتابع الجهود بعد المرحلة الأولى:

وفي سنة١٧٢ هـ توفي عبد الرحمن الداخل فخلفه ولده هشام، فزاد في المسجد صومعة (منارة) بلغ ارتفاعها أربعين ذراعاً إلى وقوف المؤذن للأذان.

كما بنى بآخر المسجد سقائف لصلاة النساء وأمر ببناء الميضأة بشرقي الجامع..

ثم لما كانت خلافة عبد الرحمن الأوسط - رابع خلفاء بني أمية الأندلسيين - زاد فيه زيادتين: الأولى بسيطة، والثانية عام ٢٣٤هـ عندما ضاق بالناس المسجد، وأخل كثير منهم بشهود الجمعة، فأمر بتوسعته من جهة القبلة بزيادة بهوين مسقوفين إلى ابهاء المسجد التسعة الأولى، وصيّر سعة كل بهو من هذين المزيدين تسعة أذرع ونصف.

وفتح في هذين البهوين بابين بسور المشرق والمغرب للمسجد فكملت أبواب الجامع السبعة.

وصارت مقاييسه بعد ذلك ١٣٠متراً طولا و٧٥ متراً عرضاً بما في ذلك الصحن، كما صارت سواريه المضافة فقط ثمانين وصنع للمسجد محرابا جميلاً.

كما ابتنى في مؤخرة صحن المسجد سقيفة شمالية لها ثلاث وعشرون سارية ليوسع بها مصلى النساء...

وقد قام ولده محمد بن عبد الرحمن من بعده باستكمال هذه التوسعة وزخرفة المسجد، وأضاف إليها المقصورة إلى يمين المحراب، والقنطرة العليا (الممر الخاص) فوق الشارع الرئيسي بين القصر والجامع، ليسلكها إلى المسجد دون مرور في الشارع.

المنارة البديعة:

وفي سنة ٣٤٠هـ بنى عبد الرحمن الناصر المئذنة الحالية محل المئذنة القديمة التي بناها من قبل هشام بن عبد الرحمن الداخل، وكانت هذه المنارة منذ القديم ولا تزال - من بدائع المنارات وغرائبها، ويقال لها: المنارة الأعظم بقرطبة.

وقد حفر أساسها فبلغ به الماء، ثم ارتفع في البناء على هيئة برج ضخم يرتفع حوالي خمسة وثلاثين متراً في الهواء، وعرض كل جانب من جوانبه ٥ر٨ متراً، وعدد أدراجها مئة وسبعة أدراج، وأعجب ما فيها أن نظام بنائها يقوم على أساس كتلتين من الحجارة، يتلف حول كل كتلة درج مستقل، لا يرى من يرتقيه الآخرين على الدرج الثاني فيها، ولكل درج باب مستقل، فهي من الخارج منارة، ومن الداخل منارتان، يجمع بين درجيها بيت المؤذن في أعلى المنارة، فكان المؤذن يدخل من باب الطريق، فيرقى المنارة ويؤذن، ثم ينزل من الدرج المفضي إلى داخل المسجد.

وفي أعلى المنارة سفود ركبت فيه ثلاث تفاحات أو شمسات: تنتان من ذهب خالص، والثالثة من فضة اكسير. فإذا سطعت الشمس عكست التفاحات الثلاث أشعتها بقوة تغشي النواظر، وتخطف ببريقها الأبصار.

كما أمر الناصر بعمل مظلة على صحن الجامع بقرطبة، وقاية للناس من حر الشمس، وأمر بترميم الجامع والعناية به عناية فائقة، حتى قال المقري نقلا عن ابن بشكوال بلغت النفقة في جامع قرطبة أيام الناصر مائتي ألف دينار، وكان الذي يشرف على هذه الأعمال ابنه وولي عهده الحكم الملقب بالمستنصر، وقاضي الجماعة بقرطبة المنذر ابن سعيد، أما الذي نفذها فهو سعيد بن أيوب صاحب مباني الخليفة.

جامع قرطبة... أول قرارات المستنصر:

وبعد أن تولى الخلافة الحكم المستنصر عام ٣٥٠هـ رأى ما يعانيه المصلون من ضيق مسجد قرطبة - على سعته بهم - يقول ابن عذارى المراكشي: وافتتح خلافته بالنظر في المسجد الجامع بقرطبة، وهو أول عهد (قرار سلطاني) أنفذه، وقلد ذلك (أمر به) حاجبه وسيف دولته جعفر بن عبد الله الصقلبي، وذلك لأربع خلون من رمضان من سنة ٣٥٠هـ وهو اليوم الثاني من يوم خلافته، وكان قطر قرطبة (محيطها) قد كثر به الناس، فضاق الجامع عن حملهم، ونالهم التعب في ازدحامهم، فسارع المستنصر إلى الزيادة فيه، فخرج لتقديرها وتفصيل بنيانها، وأحضر لها الأشياخ والمهندسين، فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء ماداً بالطول لاثني عشر عقداً، وكانت كل هذه الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسة وتسعين ذراعا (حوالي ٤٠ متراً) وعرضها من الشرق إلى الغرب مثل عرض الجامع سواء.

وقطع من هذا ساباط القصر (القنطرة) المتخذ لخروج الخليفة إلى الصلاة إلى جانب المنبر بداخل المقصورة، فجاءت هذه الزيادة أحسن مازيد في المسجد، وأشده واتقنه... وبهذه الزيادة وصل الجامع إلى ضفة النهر.

محراب قرطبة... لا نظير له:

وقد أضاف المستنصر إلى جامع قرطبة محراباً أجمع كل المؤرخين على أنه أجمل ما في مسجد قرطبة الجميل بل أجمعوا أنه أجمل محاريب الدنيا...

يقول المقري: والجامع الذي ليس في معمور الأرض مثله، فيه من النقوش والرقوم ما لا يقدر أحد على وصفه، وبقبلته صناعات تدهش العقول، وعلى فرجة المحراب سبعة أقواس قائمة على عمد، طول كل قوس فوق القامة، قد تحير الروم والمسلمون من حسن وضعها، وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة اثنان لازورديان وليس لهما قيمة لنفاستها.

ويتابع المقري واصفاً منبر جامع قرطبة فيقول: وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعته، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعمود باقلي، وقد استغرق صنعه سبع سنين.

وفوق المنبر شيد المستنصر قبة ضخمة جعلت فوق المنبر، وزخرفت بالفسيفساء الجميلة التي قام بها معماريون مهرة متخصصون، أرسلهم قيصر القسطنطينية رومانوس الثاني كنوع من التودد والتقرب للمستنصر وشعبه، وهي واحدة من ثلاث قباب رائعة في بيت الصلاة.

قال لسان الدين الخطيب: إن المستنصر زين الجامع بالفسيفساء المجتلبة من قبل ملك القسطنطينية مع الصناع المحكمين لذلك، محاذيا

بفعله ما فعله الوليد بن عبد الملك بمسجد دمشق، ففاق خدمُه ومماليكه في تعلم ذلك (صنعة وتركيب الفسيفساء) وبرعوا فيه إلى أن كمل ما أراده.

قنوات ماء... ومقاصير للخدمات العامة:

كما أضاف المستنصر إلى جامع قرطبة القنوات التي مدّ فيها الماء إلى السقايات والميضآت التي بناها، وقد أوصل الماء إلى المسجد عبر قناة مدها من سفح جبل العروس قرب قرطبة، ليجري فيها الماء محفوظاً من كل دنس كما يفعل اليوم في مجارٍ مغلقة، ويقول فيها الشاعر محمد بن شخيص:

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف من أعذب الماء نحو البيت تجريها وأضاف المستنصر كذلك عدداً من المقاصير، منها: مقصورة دار الصدقة غربي الجامع، وهي أشبه ما تكون بمركز لتوزيع الصدقات، ومقصورة أخرى قبالة الباب الغربي كان الفقراء يتخذونها مسكناً لهم، ومقصورة ثالثة جعلها مكتباً لخطباء وواعظي الجامع وعماله.

وجعل حول الجامع ثلاثة مكاتب لمعلمي أولاد الفقراء، وبالغ في إكرام أولئك المؤذنين، وحبّس حوانيت السراجين بقرطبة عليهم ليضمن دوام مرتباتهم.

وقد بلغت مساحة الزيادة المستنصرية ثلث المساحة الإجمالية للجامع، واستمرت قرابة أربع سنين من عام ٣٥١ - ٣٥٥هـ.

آخر الزيادات في التحفة القرطبية:

وآخر الزيادات في جامع قرطبة العظيم زيادة المنصور ابن أبي عامر، فقد أولى هذه الرجل جامع قرطبة عناية خاصة فوق ما كان يحظى به من عناية أسلافه، حتى أطلق عليه بعض العلماء اسم جامع المنصور، وقد كان يشترك أحياناً بنفسه في أعمال البناء.

وقد تمت هذه الزيادة سنة ٣٧٧هـ، وكانت بطول المسجد كله من ناحية الشرق، وتحرى فيها المنصور أن تتفق في الهيئة والروح العام من بقية بنيان المسجد فأعطت المسجد، عمقاً وسعة وجلالا، بعد أن بلغت أروقة المسجد الذاهبة إلى جدار القبلة ١٩ رواقاً وأصبح عدد أروقته الموازية لجدار القبلة ٣٥ رواقاً، وأصبحت مقاييس المسجد ١٢٥ × ١٨٠ متراً أي ٢٢,٥٠٠ متراً مربعا، يشغل بيت الصلاة وحده منها أكثر من نصفها وهذا أضخم بيت صلاة بني في الإسلام.

وقد بلغت الأعمدة التي زادها المنصور وحده في جامع قرطبة ٣٤٥ عموداً، أما ما في جميع المسجد فكان ألفاً ومائتين وثلاثة وتسعين عموداً، من الرخام الجميل..

وأضاف المنصور إلى أعماله تلك تجديد الإنارة في الجامع، حتى بلغت الثريات التي تسرج داخل البلاطات - سوى ما منها على الأبواب - مئتين وأربعاً وعشرين ثريا، منها أربع معلقة في البلاط، أكبرها الثريا الضخمة المعلقة في القبة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة، زعموا أن فيها وحدها ألفاً وأربعة وخمسين سراجاً فقط.. كما وسع المنصور صحن المسجد بمقدار الثلث.

نشاط علمي رائد:

ولا يفوتنا أبداً أن ننوه بوضوح إلى الدور العلمي والفكري الذي قام به جامع قرطبة في الأندلس في مختلف عصوره، حتى تحول إلى جامعة حقيقية يتحدث عن نشاطها علماء المسلمين وغيرهم، ومن هؤلاء المستشرق الهولندي دوزي الذي أطلق على الجامع اسم جامعة قرطبة، وأشاد برعاية المستنصر للعلماء من مختلف الملل والنحل مسلمين وغير مسلمين وبيّن هذا المستشرق أن إغداقه على العلماء الأسبان - يعني المسلمين الأندلسيين - والأجانب - يعني النصارى - لم يعرف حدا، بل كان يشجع الجميع بمن فيهم الفلاسفة الذين طرحوا آراءهم بكل حرية وجرأة.

وقال أيضاً: أما جامعة قرطبة فقد كانت يومئذ أشهر جامعات العالم، وكان مركزها المسجد الجامع، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم، وكان يدرس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي، ويملي أبو علي القالي دروسه عن العرب قبل الإسلام وعن لغتهم وأمثالهم، وكان ابن القوطية يدرس النحو، وكان الطلبة يفدون بالآلاف.

وكان عدد العاملين في جامع قرطبة والمتصرفين فيه (أي عدد الإداريين والعلميين) من أئمة وخطباء ومقرئين ومؤذنين وسدنة وموقدين وخدم مائة وتسعة وخمسين شخصاً.

الأسبان... يعاقبون جامع قرطبة:

ولا يفوتنا ونحن نختم الحديث عن أروع قطعة فنية معمارية تركها المسلمون شاهدة على مدى حضارتهم وتقدمهم، أن نذكر بكل أسى وحسرة أن الأسبان عندما دخلوا قرطبة غالبين عليها، ألقوا القبض على جامع قرطبة بتهمة التوحيد والعبادة، فحولوا بعض أجزائه بصورة شاذة، إلى كاتدرائية، كما عاقبوا منارته الرائعة البديعة على تهمة الأذان والتكبير فحولوها إلى برج للنواقيس، كما بالغوا في تتبع نشاطه العلمي الفكري فألغوا كل حلقة علمية، وطاردوا كل مدرس مختص، وأغلقوا كل كتاب مفتوح فيه.. وتلك لعمري شواهد إثبات على الهمجية والحقد.

وما يزال مسجد قرطبة الجميل حبيس آسريه، يذرف الدمع ويفجره في مقلة كل مسلم.. لقد كان بمساحاته وأعمدته، وقبابه ومنارته، وزخارفه ورسوماته، وكل الأعمال المدهشة التي فيه، يستحق من الوصف أكثر مما قاله فيه الكاتبون والمؤرخون، وهذا يدل على أن يد البناء المسلم وهي تطوّع الحجر الأصم أقدر من لسان الكاتب البليغ وقلمه وهو ينسخ حروف الكلمات وتراكيبها.

ج-بناء القصور:

- قصر الحمراء

يعتبر قصر الحمراء أحد العناوين البارزة على التواصل الحضاري بين المسلمين وأوروبا. فهذا القصر يبدو نموذجاً مميزاً من قصور الأندلس يسلط التقرير التالي، المقتبس بتصرف من توثيق المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الأضواء على هذا المعلم الأندلسي الشهير. تعود بداية تشييد قصر الحمراء إلى القرن السابع الهجري، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي، وترجع بعض أجزائه إلى القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي. وثمة خلاف بشأن سبب تسمية هذا المعلم البارز باسم قصر الحمراء، فهناك من يرى أنه مشتق من بني الأحمر، وهم بنو نصر الذين كانوا يحكمون غرناطة بين عامي ٦٢٩ و٨٩٧ للهجرة، ما يوافق عامي ١٢٣٢ و١٤٩٢ للميلاد، بينما يرى آخرون أنّ التسمية تعود إلى التربة الحمراء التي يمتاز بها التل الذي تم تشييده عليها. ومن التفسيرات الأخرى للتسمية أنّ بعض القلاع المجاورة لقصر الحمراء كان يُعرف منذ نهاية القرن الثالث الهجري، الموافق للقرن التاسع الميلادي؛ باسم المدينة الحمراء. ويُنسب قصر الحمراء إلى يوسف الأول، بين عامي ٧٣٣ و٧٥٥ هـ، الموافق لعامي ١٣٣٣ و١٣٥٤ م، ومحمد الخامس بين عامي ٧٥٥ و٧٩٢ هـ، مع انقطاع بين سنتي ٧٦٠ و٧٦٣ خلع خلالهما عن الحكم، ثم عاد إليه مجدداً ليبدأ في المرحلة الثانية من حكمه أهم التطويرات، ويكتب أغلب الأشعار التي يزدان بها القصر. ويتوزع هذا القصر على أقسام ثلاثة. القسم الأول هو المشور، الذي يعقد فيه الملك مجلسه، ويصرف أمور دولته، ويسمع ظلامات رعاياه، والثاني قسم الاستقبالات الرسمية، ويشمل الديوان وقاعة العرش، والثالث قسم الحريم، ويضم المسكن الخاصة الملوك. تتمثل الأعمال الإنشائية في مجموعتين، عبارة عن قصرين مندمجين، إذ تتمحور الصالات والغرف حول صحنين متعامدين مع بعضهما. وإلى عهد الأمير يوسف الأول تم بناء برج السيدات وقصر البرطل، وجميع المنشآت التي تحيط بصحن البركة، بما في ذلك برج قمارش الذي تقع فيه صالة السفراء، والمصلى وحمامات القصر. ثم أضاف الأمير محمد الخامس إلى هذه المجموعة صحن الأسود مع الصالات التي تحيط به، وخاصة قاعة الملوك أو قاعة العدل، وقاعة الأختين، وقاعة بني سراج. وكان محظوراً دخول صحن الأسود حتى على أقرب المقربين إلى الأمير، أما زخرفة الجدران والأقواس فهي في أغلبها نصف دائرية، والقباب المقرنصة. وهناك اختلاف واضح في الأسلوب الزخرفي بين ذلك الجزء الذي يعود إلى عهد الأمير يوسف الأول، وذلك الذي يعود إلى عهد ابنه محمد الخامس، إذ يقترب القسم الخاص بيوسف الأول من أسلوب المدارس في

فاس، والمساجد في تلمسان، أما القسم الذي يرجع إلى عهد محمد الخامس فقد تضمن عناصر جديدة؛ فليس لها علاقة بالرسامين العرب، إذ تبدو ظاهرة الاستعانة بالفنانين النصارى بوضوح. ورغم ذلك فإنّ القسمين يشتركان في انسجامهما مع واقع العمارة الإسلامية وتطابقهما مع التقاليد، كما هو موجود في فناء البركة مع الرواقين، وترتيب الحمام وقاعة السفراء التي تشغل تنوعاً واسعاً يشرف على الوادي، وكذلك الفناء الشهير الذي تقع فيه بركة الأسود الاثني عشر الرخامية، والذي عرف بهذا الاسم. وثمة جناحان محمولان على أعمدة رشيقة، يبرزان أمام أروقة تمتد على طول الضلعين الصغيرين لساحة القصر. وعلى مرتفع مجاور للحمراء؛ تقوم جنة العريف، وهي حديقة من منشآت ملوك بني نصر، وتحتوي على أجنحة وأروقة محاطة بحدائق جميلة تسقى من خلال قنوات ونوافير ماء. وفي قصر الحمراء يوجد حمام يرجع إلى القرن الرابع عشر، يحتوي على عناصر رئيسة معروفة، كقاعة الاستراحة ذات الزخرفة الغنية، والسقف المرتفع مع رواقين، ثم تأتي غرف مقبية بفتحات صغيرة، يدخلها النور، وبعد ذلك ممر يستعمل كقسم بارد، يأتي بعده قسم دافئ أكثر اتساعاً محاط بأروقة، ثم القسم الحار ومقصورات التدليك. وهذه الأقسام هي المميزة لحمامات هذا القصر، والتي تتشابه مع تلك الموجودة في جبل طارق، وفي مرسيليا، وفي جرش الأندلس، وفي بلاد البربر في وجدة، والعباد، وتلمسان. ومن سمات العمارة الإسلامية الواضحة في أبنية القصر؛ استخدام العناصر الزخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، بل حتى بعض المدائح والأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك، وتحيط بها زخارف من الجص الملون الذي يكسو الجدران، وبلاطات القاشاني الملون ذات النقوش الهندسية، التي تغطي الأجزاء السفلى من الجدران.

د- فن الزخرفة في الأندلس:

رغم استفادة المسلمين في فن الزخرفة في بعض عناصره من حضارات الإغريق والرومان القديمة، إلا أن المسلمين طوّروا بل وَبلوَرُوا نمطاً فنياً جديداً، كما يبدو ذلك للعيان في الزخرفة والعمارة.

وحقيقةً فقد ذاع صيت الفن الإسلامي أكثر فيما يتعلق بالزخرفة وفنونها، أكثر من غيره من الفنون الأخرى كالتشكيلية مثلاً.

ومع كل ذلك، فإن جميع الزخارف الإبداعية الإسلامية كانت تشمل كل مجالات الحياة وكل المواد والأحجام مع توظيف كل التقنيات المتوفرة آنئذ. وكانت هنالك أربعة عناصر رئيسية لهذا الفن هيَ: الخط العربي، الزخارف النباتية، الأبعاد الهندسية ثم الأشكال والأنماط الجمالية.

هذه العناصر تشكل في نهاية المطاف زخرفة غزيرة فيَّاضة، والتي تجعل المرء يشعر بالخوف أمام فضاء فارغ أو ظاهرة ما يسمى بـ "الخوف الأجوف".

فُسَيْفسَاء زخرفية في مدينة غرناطة:

علم الهندسة مهمٌ ومهمٌ جداً في الفن المعماري الإسلامي، إذ أن هذا الفن سُخر لإثبات وحدانية الله - سبحانه وتعالى - وقد استخدمت الدوائر المتقنة المضبوطة كمعيار نموذجي مما يفسح المجال في إبداع موضوعات فرعية ذات صلة بالموضوع الأصلي.

أما في الرسم فقد طبِّقت مبادئ الإعادة التناظرية والتكثير أو التقسيم أو كليهما معاً، حيث تمَّ التعامل مع الرسم كفَنٍ عقلاني ذهني أكثر مما هو عاطفي انفعالي طبقاً لمبادئ الرياضيات. وقد استخدمت في هذا الفن إطارات ذات خطوط متشعبة ومتقاطعة فيما بينها ومكونة أشكالاً كالمُعين أو أشرطة ضفائرية، منعطفات، رسوم تعرجية وشطرنجية وعقد وروابط مكونة فيما بينها نجوم.

المكتبات والأدب

أ- المكتبات في الأندلس:

اشتهر الأندلسيون بحب الثقافة والإطلاع، وتقدير العلماء وإعلاء مقامهم، ولذلك كثر العلماء في الأندلس، وكثرت مؤلفاتهم، وقدمت الأندلس للثقافة الإسلامية العربية أعلاماً بارزين في مختلف العلوم والفنون. وقد انتشرت المكتبات في الأندلس،

وأقبل الناس على اقتناء الكتب، حتى قيل: إن كل بيت في الأندلس لابد أن يكون به مكتبة حتى لو كان صاحبه عامياً. وقد أنشأ الحكم بن عبد الرحمن الناصر مكتبة كبرى في قرطبة تعتبر من مفاخر الأندلس، ومن أشهر المكتبات في العالم الإسلامي. وكذلك عملوا على جلب الكتب واستنساخها من المشرق، حتى قيل: إن النسخة الأولى من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني قد عرفت في الأندلس قبل المشرق، ذلك أن الحكم المستنصر قد بعث إلى أبي الفرج بألف دينار ذهبا، فبعث إليه أبو الفرج بالنسخة الأولى قبل أن يخرجه للناس في العراق. وقد رحلت مجموعة من طلبة العلم في الأندلس إلى المشرق لتلقي العلم والأدب، ولنقل الثقافة المشرقية إلى المغرب والأندلس، ومنهم يحيى بن يحيى الليثي الذي رحل إلى المدينة المنورة، وتتلمذ على الإمام مالك رضي الله عنه، ثم عاد إلى الأندلس. وكذلك رحل شاعر الأندلس المشهور يحيى بن الحكم الغزال إلى بغداد، والتقى بأدبائها، وروى عنهم الشعر.

كما أن الأمويين في الأندلس قد عملوا على جلب العلماء من المشرق إلى الأندلس وذلك لنشر العلم، فكان أن هاجر إلى الأندلس نخبة من علماء المشرق في الفقه واللغة والأدب وغير ذلك، مثل: أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي، وأبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي.

المكتبات في الأندلس

وقد كان المجتمع الأندلسي خليطاً من أجناس مختلفة؛ فهناك العرب الذين دخلوا الأندلس فاتحين أو هاجروا إليها بعد الفتح، وهناك البربر الذين شاركوا في الفتح الإسلامي أو نزحوا من الشمال الإفريقي، وهناك سكان الأندلس الأصليون من الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام، وكذلك أصناف أخرى من جنسيات متعددة كالصقالبة وغيرهم.

وقد اندمجت فئات المجتمع الأندلسي، ووحد الإسلام بينها، وأصبحت اللغة العربية لغة الجميع، وساهموا جميعاً في الحضارة الإسلامية في الأندلس.

كما أن لأهل الأندلس عناية كبيرة باللغة العربية؛ فقد تعربت الأندلس بعد الفتح بفترة قصيرة، ثم جاء الأمويون وهم متعصبون للغة العربية وآدابها فعملوا على نشرها وخدمتها، وكان أكثرهم من الشعراء والخطباء، فازدهرت اللغة والأدب في الأندلس، وكان من نتاج ذلك هذا التراث الأدبي واللغوي العظيم الذي خلفه لنا الأندلسيون، وساهموا به في خدمة اللغة العربية.

وقد كانت الأندلس درة الحضارة الإسلامية في أوربا، وكانت مضرب المثل في الجمال والنظافة ومظاهر المدنية، فقد كان الأندلسيون بطبعهم ميالين إلى النظافة والعناية بالمظهر الحسن والأناقة في اللباس والمسكن، وكانت طبيعة الأندلس تخلب الألباب بمروجها الخضر وأشجارها الجميلة وأزهارها الفواحة وأنهارها الرقراقة المتدفقة.

ثم أضافوا إلى ذلك ما أحدثوه من قصور جميلة ومدارس كثيرة ومساجد عظيمة، تدل على تقدم الفن الهندسي في البناء وعلى الذوق الجميل، وقد بقيت آثارهم إلى عصرنا هذا شاهدة على عظمتهم وذوقهم الرفيع.

ولم يخل المجتمع الأندلسي من عوامل الضعف ومكونات الفساد، فقد كان كثير منهم يميل إلى حياة الترف والدعة والإسراف واللهو والغناء بسبب ضعف الإيمان. ثم إن وجود عدد من الأسبان الذين لم يسلموا وعدد آخر من اليهود في وسط المجتمع الأندلسي كان من عوامل الانهيار والضعف، إضافة إلى استعانة بعض الحكام وخصوصا في عصر الطوائف وما بعده - بالنصارى من ملوك الإسبان الحاقدين على الإسلام والإصهار إليهم، كل ذلك قد أدى إلى انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس وخروج المسلمين منها في آخر الأمر.

وقد كان لتلك الحضارة العظيمة التي أنشأها المسلمون في الأندلس الأثر العظيم الواضح على أوربا جميعها؛ فقد كانت أوربا تعيش في عصر الظلام والانحطاط والجهل في الوقت الذي كانت الأندلس تعيش في قمة الحضارة، فتلقت أوربا العلم عن الأندلس، ورحل الأوربيون إليها لدراسة الطب والعلوم الأخرى.

وقد أقر الأوربيون بفضل الحضارة الإسلامية في الأندلس عليهم، وألفوا في ذلك كتباً ودراسات كثيرة.

ب- الأدب في الأندلس:

وقد اشتهر الأندلسيون بحب الثقافة والإطلاع، وتقدير العلماء وإعلاء مقامهم، ولذلك كثر العلماء في الأندلس، وكثرت مؤلفاتهم، وقدمت الأندلس للثقافة الإسلامية العربية أعلاماً بارزين في مختلف العلوم والفنون.واشتهر من أدباء الأندلس:

ابن سيده:

علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيدَه (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م - ٢٦ ربيع الآخر ٤٥٨هـ/ ٢٧ مارس ١٠٦٥م) كاتب معاجم أندلسي. ولد في مرسية ونشأ في بيت علم، علمه أبوه اللغة العربية والنحو، كان أعمى كأبيه. توفي أبوه وهو صغير.

مؤلفات ابن سيدَه:

الوافي في علمِ القوافي، وله كتاب شاذ اللغة في خمسة مجلدات، وكتاب في التذكير والتأنيث.

وأما ما وصل إلينا من مؤلفات ابن سيده فثلاثة هي: المشكل من شعر المتنبي، المحكم والمحيط الأعظم.

أبو حيان الغرناطي:

العلامة محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين ، أبو حيان ، الغرناطي الأندلسي الجياني النفزي ولد في غرناطة سنة ٦٥٤هـ، فقيه ظاهري

مؤلفاته: أشهر أعمال أبي حيان وأعظمها هو تفسيره الضخم البحر المحيط الذي يُعد قمة التفاسير التي عنيت بالنحو، وليس له مثيل.

ابن زيدون:

أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي، أبو الوليد. وزير، وكاتب وشاعر من أهل قرطبة، انقطع إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس، فكان السفير بينه وبين ملوك الأندلس فأعجبوا به. وفي الكتاب من يلقبه ببحتري المغرب، أشهر قصائده: (أضحى التنائي بديلا من تدانينا) ومن آثاره غيرِ الديوان رسالة في التهكم بعث بها عن لسان ولادة إلى ابن عبدوس وكان يزاحمه على حبها، وهي ولّادة بنت المستكفي. وله رسالة أخرى وجهها إلى ابن جهور طبعت مع سيرة حياته في كوبنهاغن وطبع في مصر من شروحها الدر المخزون وإظهار السر المكنون.

ابن عبد ربه الأندلسي:

أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير بن سالم أبو عمر. الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة. كان جده الأعلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان ابن عبد ربه شاعراً مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير، منه ما سماه الممحصات، وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة واسعة وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أما كتابه (العقد الفريد) فمن أشهر كتب الأدب سماه العقد وأضاف النساخ المتأخرون لفظ الفريد.

ابن هانئ الأندلسي:

محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم يتصل نسبه بالمهلب بن أبي صفرة. أشعر المغاربة على الإطلاق وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين. ولد بإشبيلية وحظي عند صاحبها، واتهمه أهلها بمذهب الفلاسفة وفي شعره نزعة إسماعيلية بارزة، فأساؤوا القول في ملكهم بسببه، فأشار عليه بالغيبة، فرحل إلى أفريقيا والجزائر.

أبو البقاء الرندي:

صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الرندي، أبو البقاء. وتختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطيب وهو مشهور في المشرق بأبي البقاء. وهو أديب شاعر ناقد قضى معظم أيامه في مدينة رندة واتصل ببلاط بني نصر (ابن الأحمر) في غرناطة. وكان يفد عليهم ويمدحهم وينال جوائزهم وكان يفيد من مجالس علمائها ومنِ الاختلاط بأدبائها كما كان ينشدهم من شعره أيضاً. قال عنه عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة كان خاتمة

الأدباء في الأندلس بارع التصرف في منظوم الكلام ونثره فقيهاً حافظاً فرضياً له مقامات بديعة في أغراض شتى وكلامه نظماً ونثراً مدون.

ابن حزم الأندلسي:

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، الظاهري، شاعر وكاتب وفيلسوف وفقيه. ولد في مدينة قرطبة وكان يلقب بالقرطبي إشارة إلى مولده ونشأته. اختلف في نسبه، أينحدر من أصول فارسية أم من أصل إسباني أم هو عربي صميم النسب؟!. وعلى كل، فقد كانت أسرته من تلك الأسر التي صنعت تاريخ الأندلس. عَمُرَت حياته في صباه بالدرس والتحصيل، فأخذ المنطق عن محمد بن الحسن القرطبي، وأخذ الحديث عن يحيى بن مسعود، وأخذ الفقه الشافعي عن شيوخ قرطبة، ونشأ شافعي المذهب ثم انتقل إلى المذهب الظاهري حتى عرف بابن حزم الظاهري. عانى ابن حزم من الفتنة التي شبت بقرطبة، وكتب متمثلا تلك الفترة في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف). ثم ترك قرطبة واستقر بمدينة المريّة، وكان مشغولا بهاجس السياسة وإعادة الخلافة للأمويين. ولقي من جراء ذلك عذابًا كثيرًا؛ فظل يعاني النفي والتشريد بعيدًا عن قرطبة، ويحن للعودة إليها. ولما سقطت الخلافة الأموية نهائيًا بالأندلس وزالت دولة الأمويين، تفرغ ابن حزم للعلم والتأليف. فأثرى المكتبة العربية بمؤلفات مفيدة في مختلف فروع المعرفة من أشهرها: الفصَل في الملَل والأهواء والنحَل؛ طوق الحمامة؛ جمهرة أنساب العرب؛ نقط العروس؛ ورسالته في بيان فضل الأندلس وذكر علمائه؛ الإمامة والخلافة؛ الأخلاق والسير في مداواة النفوس والمحلى بالآثار؛ الإحكام في أصول الأحكام..

إمام النحو ابن مالك الأندلسي:

هو أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجيّاني وتشير أكثر الروايات إلى أن ابن مالك ولد في الأندلس سنة (٦٠٠ هـ)، بدأ دراسته في بلده بحفظ القرآن الكريم، ودراسة القراءات والنحو والفقه على مذهب الإمام مالك، فأخذ العربية والقرآن بجيّان عن ثابت بن خيار الكلاعي من أهل لبّة. وقد ذكر ابن مالك لبعض تلاميذه أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلده جيان، وأنه جلس في حلقات الأستاذ أبي علي الشلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً.

قدم ابنُ مالك إلى دمشق وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن الصباح، وأبي الحسن السخاوي، وغيرهم. ثم توجه ابنُ مالك إلى حلب وتلقى النحو على ابن يعيش شارح المفصل للزمخشري، وعلى تلميذه ابن عمرون، وأغلب الظن أنه حضر جانباً من شرح المفصل عند ابن يعيش.

وقد نبغ ابنُ مالك في اللغة والنحو نبوغاً عظيماً حتى صار مضرب المثل في معرفته بدقائق النحو والصرف واللغة وأشعار العرب. وقد قدم للتدريس في مدينة حلب بعد أن أتمّ دراسته اللغوية، وكان إمام المدرسة السلطانية فيها، فأخذ يلقي بحلب دروسه في النحو ويؤلف، وهناك نظم (الكافية الشعرية). ثم ارتحل إلى حماة من البلاد الشامية وأقام بها ونشر فيها علمه وتابع دروسه في النحو ونظّم ألفيته المشهورة، وهي خلاصة الكافية الشافية. ثم تحول ابن مالك إلى دمشق حيث أقام بها يشتغل بالتدريس والتصنيف، وتكاثر عليه الطلبة وحاز قصب السبق، وصار يضرب به المثل في معرفة دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب، وألّف المصنفات المفيدة في فنون العربية ومن ذلك كتاب (التسهيل) الذي لم يسبق إلى مثله.

وقام بالتدريس في الجامع الأموي والمدرسة العادلية الكبرى بدمشق، وقد عيّن إماما لها، وكان أكثر ما يلقيه على تلاميذه النحو، كما كان يدرّس القراءات. قيل: كان يخرج على باب مدرسته ويقول: هل من راغب في علم الحديث أو التفسير أو كذا أو كذا قد أخلصتها من ذمّتي؟ فإذا لم يُجَبْ قال: خرجتُ من آفة الكتمان.

ومن أشهر مؤلفاته:

١ - الكافية الشافية: وهي منظومة طويلة تقع في حوالي ثلاثة آلاف بيت من بحر الرجز، تضم النحو والصرف، وقد شرحها ابنُ مالك. وقد

طبع الشرح في جامعة أم القرى بتحقيق الدكتور عبد المنعم هريدي.

٢- الخلاصة أو الألفية: وهي منظومة تقع في نحو ألف بيت من الرجز، أودَع فيها ابن مالك خلاصة الكافية الشافية من نحو وتصريف، وقام بشرحها كثير من العلماء، ومنهم الأشموني وابن هشام والمرادي وابن عقيل.

٣- التسهيل، أو تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: وقد قام بتحقيقه الأستاذ محمد كامل بركات وطبع في القاهرة بإشراف وزارة الثقافة، وقد اعتنى به كثير من العلماء وشرحوه. ومن أشهر شروحه (التذييل والتكميل) لأبي حيان الأندلسي في عدة مجلات، وتعليق الفرائد للدماميني والمساعد لابن عقيل.

٤- وقد شرح ابن مالك كتاب (التسهيل) ولكنه لم يتمه، ووصل فيه إلى باب المصادر.

٥- شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، وقد قام بتحقيقه الدكتور عدنان الدوري وطبع في بغداد سنة ١٣٩٧ هـ

٦- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: وهو تعليقات ومناقشات قيمة لمشكلات الإعراب في صحيح الإمام البخاري. وقد حققه ونشره محمد فؤاد عبد الباقي في القاهرة عام ١٣٧٦ هـ.

٧- لامية الأفعال: وهي منظومة لامية في (١١٤) بيتاً من بحر البسيط، وقد شرحها ابن مالك، وشرحها كذلك ابنه بدر الدين وغيره.

ج- علماء التاريخ والجغرافيا:

البكري:

أول الجغرافيين الكبار بالأندلس هو أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري من أهالي قرطبة ولد فيها سنة (٤٣٢ هـ وفيها توفي ٤٨٧ هـ)، وكان البكري من بيت معروف بالعلم ومشهور بالشرف فنشأ نشأة علمية في عصر ارتفعت فيه مكانة العلماء والأدباء على الرغم من التفتت السياسي الذي منيت به بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة فيها..

أقام البكري في قرطبة في ظل بني جهور أصحاب هذه المدينة وهناك اتصل بالمؤرخ القرطبي الكبير ابن حيان وقد كان لهذا الاتصال أثره في تكوينه التاريخي ..ثم رحل بعد وفاة ابن حيان في سنة ٤٥٦ هـ إلى المرية ثم إلى اشبيلية واستقر فيها في كنف المعتمد بن عباد ولم يغادر البكري الأندلس في حياته أبدا ولذلك فإن كتبه الجغرافية لا تعدو أن تكون جمعا منظما لجهود من سبقه من المؤرخين والجغرافيين ويعتبر كتابه (المسالك والممالك) أعظم ما صنفه سوى الجزء الخاص ببلاد المغرب وقد ضمّن كتابه أحداثاً تاريخية هامة جداً استقاها من محمد بن يوسف الوراق وهو مؤرخ مغربي هاجر من القيروان واستقر في قرطبة. وفي كتابه (معجم ما استعجم) أثبت أسماء الأماكن التي جاء ذكرها في أشعار العرب.

ابن خلدون

ما زال التراث الغزير الذي تركه ابن خلدون يحتفظ بقيمته وروعته ، ويتبوأ مكانة عالية بين تراث التفكير العالمي، وما زالت الدراسات التي تصدر وتبحث في فكر هذا العالم تحظى بالاهتمام من قبل الكثيرين فكيف عاش ابن خلدون حياته؟ ومتى بدأ كتابة مؤلفة التاريخي الضخم وماذا يضم؟ ولد ابن خلدون في تونس سنة ٧٣٢ للهجرة وسنة ١٣٣٢ للميلاد في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس في أواسط القرن السابع الهجري ويرجع أصل ابن خلدون إلى العرب اليمانية في حضرموت ونسبه إلى وائل بن حجر وبما أن ابن خلدون سليل أسرة عريقة ونابهة فقد تتلمذ على يدي أبيه الذي كان معلمه الأول إذ قرأ القرآن وحفظه وتفقه في القراءات السبع ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه كما درس النحو واللغة على يد أشهر الأساتذة في تونس التي كانت مركزاً للعلوم والآداب في بلاد المغرب وكانت منزلا لعدد كبير من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث ، أو ضاق بهم الوطن وقد عكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة حيث طافت بالمغرب تلك الكارثة التي نكبت العالم الإسلامي كله من سمرقند إلى المغرب اي الفناء الكبير أو الطاعون الجارف والذي هلك فيه والدا المؤرخ وجميع شيوخه،

ومعظم سكان تونس ويشير ابن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة في لهجة مؤثرة فيقول إنها: طوت البساط بما فيه. وفيها يقول أيضاً: ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله لهذا فقد أراد النزوح إلى المغرب الأقصى الذي نزح إليه بعض شيوخه وأصحابه إلا أن أخاه الأكبر محمد رده عن عزمه ولم يمض وقت طويل حتى استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس آنذاك لكتابة العلامة عن محجورة وأسيره السلطان الفتى أبي إسحاق وكتابة العلامة هي التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية وكان المؤرخ يومئذ حدثاً دون العشرين بعد ذلك انتقل إلى فاس وانتظم في بلاط أبي عنان الذي ولاه رغم حداثة سنه منصب الكتابة واختصه في مجلسه للمناظرة والتوقيع عنه، إلا أن الدسائس والوشايات أوصلته إلى السجن حيث كتب قصيدة للسلطان استعطفه فيها للإفراج عنه يقول فيها: على أي حال لليالي أعاتب وأي صروف للزمان أغالب كفى حزناً أني على القرب نازح وأني على دعوى شهودي غائب وأني على حكم الحوادث نازل تسالمني طوراً وطوراً تحارب فعفا عنه السلطان إلا أنه توفي قبل موعد الإفراج عنه لكن الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر الدولة أخرجه من سجنه ورده إلى سابق وظائفه بعد ذلك انتقل إلى الأندلس وقربه السلاطين والأمراء إلى بلاطاتهم وقلدوه المناصب السياسية إلا أنه آثر العودة إلى المغرب زاهداً في العمل السياسي معتكفاً للتأليف وفي هذه العزلة التي فرضها على نفسه بدأ بكتابة مؤلفه التاريخي وكان يومئذ في الخامسة والأربعين من عمره حيث نضجت تجاربه ومعارفه واطلاعاته وبما أن ابن خلدون خاض معترك السياسة على مدى ربع قرن متقلباً في خدمة القصور والدول المغربية التي عرف أخبارها وتقاليدها وعادات مجتمعاتها، وكان ذكياً، حاذقاً فقد ساعده ذلك في كتابة مقدمة تاريخه الذي أنجزه بعد خمسة أشهر من البدء فيه بعدها شرع في كتابة تاريخه الذي دوّن فيه تاريخ العرب والبربر وزناته أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى والأخيرة، ولم يكن في ذهنه إن يكتب تاريخاً عاماً للخليقة كلها، بل كان قصده الأساسي أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية ولما كان ينقصه في مكانه الذي اعتزل به الكثير من المراجع فقد عاد إلى بلده تونس الغنية بمكتباتها ومراجعها وهيأ له سلطانها كل أسباب الراحة فعكف على إتمام مؤلفة وتنقيحه وتهذيبه الذي ضم المقدمة وأخبار البربر وزناته وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة. لكن خصومه لم يتركوه في مأمن من العيش وحين أحس بدسائس هؤلاء اضطر أن يلتمس الحج عذراً للرحيل والنجاة فقدم إلى الإسكندرية ١٣٨٢م ثم إلى القاهرة التي نال فيها كل التقدير والاحترام لأن شهرة مؤلفه كانت قد سبقته إلى هناك فأخذ يدرس في الأزهر الحديث والفقه المالكي ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول وكانت هذه الدروس تنبئ عن غزير علمه وسحر بيانه. وقد تقلد في مصر منصب القضاء بعد ذلك انتقل إلى دمشق وحاول الاتصال بتيمورلنك لتحقيق مكاسب سياسية لكن أمانيه لم تتحقق فعاد إلى مصر ليستقر في القاهرة ساعياً لتسلم منصب القضاء وقد ولي هذا المنصب مرات عديدة وعزل منه بسبب الدسائس والوشايات، وقد قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاماً كان فيها قليل الإنتاج حيث لم يكتب سوى بعض الإضافات على المقدمة والتاريخ كما كتب ترجمة عن حياته أثناء إقامته بمصر واستمر فيها إلى قبيل وفاته وضمنها فصولاً جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ونشأة التتار وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة وفي ١٦ آذار سنة ١٤٠٦ للميلاد وبعد حياة حافلة بالحوادث السياسية والفكر المتميز توفي المؤرخ الكبير والمفكر العالم بعد تعيينه قاضياً للمالكية وكان قد بلغ الثامنة والسبعين من العمر ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر وهي مقابر العظماء والعلماء وهكذا نجد أن ابن خلدون عاش في المغرب سياسياً ولكنه عاش في مصر عالماً وقاضياً، ما عدا الفترة التي اتصل بها في دمشق بتيمورلنك وما يمتاز به ابن خلدون عن جميع المؤرخين المسلمين أنه نظر إلى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط وقد كتب مقدمة مؤلفه التاريخي لتكون

شرحاً وتمهيداً يقرأ على ضوئها التاريخ وتفهم وقائعه.

الشريف الإدريسي (٥٦٠هـ ١١٦٠م):
أشهر جغرافيي الأندلس. في كتابه (نزهة المشتاق) الذي أهداه إلى (روجيه الثاني النورماندي) ملك صقلية وعرف بكتاب روجيه، تكلم الشريف الإدريسي عن أقاليم العالم كلها وخاصة أوروبا، وقد وضع الخرائط الدقيقة التي توضح جانبا من مواقع الأماكن الواردة في الكتاب. ويمتاز الكتاب بدقته في حساب الأطوال والعروض للبلاد المختلفة بعد تقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم ثم تقسيمه هذه الأقاليم إلى عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق، فصار مجموعها سبعين قسما، ووضع لكل قسم خريطة خاصة زيادة على الخريطة الجامعة.

د- الموسيقا والغناء:
العمل الفني في الأندلس تغير بظهور الموشح والزجل وإدخالهما في النوبة الغنائية الأندلسية بعدما كانت على عهد زرياب وعهد الطنبوريين معتمدة على النشيد والصوت فقط، فهي ومنذ ظهور هذا العمل الأندلسي الأدبي ولت من نشيد وصوت، وموشح، وزجل فبعد أن كان المغني يكد ويجتهد في البحث والتنقيب ويجهد نفسه جريا وراء جملة من الأشعار المختلفة الموافقة للمناسبات والأصناف والجلسات الفنية، أصبح في متناوله عمل متكامل موحد في موشحات أو زجليات. ومشتمل على وحدة الموضوع مع الانطلاق الخيالي في حرية التعبير.

فالشاعر الوشاح والزجال الأندلسي لم ينتج من شعره دورا واحدا في موشحته أو زجليته ذلك الدور الذي عرف في طربنا الموسيقي باسم (الصنعة) المشتملة أسماء ومراكز بل اخترع موشحاته وزجلياته من أدوار عدة أغلبها من خمسة أو ستة أدوار وربما وصلت إلى سبعة أو تسعة في عهود لاحقة.

وهذا دفع الملحن لإفراغ لحنه بل ألحانه على تلك الأدوار جاعلا لكل دور لحنا منفرداً فأعطى لكل دور في الموشحة أو الزجلية روحا حية يزدهر بها الموشح الواحد مبرزا في ذلك فكرة المودلسيون أو تعددية الأنغام اللحنية.

ولقد جربت هذه المنهجية مع المرحوم الأستاذ محمد العربي التمسماني سنة ١٩٨٢ م و طبقنا الفكرة على موشح – هل درى – لابن سهل بعد عرضي لموضوع علاقة الموشح بالموسيقى. منذ عهد أجدادنا وإلى وقت قريب كان هناك من يستعمل هذا الصنف من الغناء مضمنا صنائع مختلفة مرتبة حسب ميزان واحد في تنسيق وانسجام أطلقوا عليه مصطلح (دوش عملين) إذ اللحن الذي ينطلقون منه يرجعون إليه في الختام. ثم جاء من أعطى لهذه المنهجية أو هذا العمل الفني اسما آخر ألطف وأجمل وهو العلامة العارف الرباني القطب سيدي عبد السلام بن ريسون وسى (قدام القدادم) باسم: (ترصيع النغم لصنائع) فمنهجية ابن باجة – الأعلم – حسبما أثبته التيفاشي كانت من وحي البيئة الأندلسية كما أن إنتاج الموشح والزجل جاء امن تفاعل الشاعر مع البيئة، يقول التيفاشي ابن باجة الإمام الأعظم: (اعتكف عدة سنين مع جوار محسنات فهذب الاستهلال والعمل، ومزج غناء النصارى بغناء المشرق واخترع طريقة لا توجد إلا بالأندلس مال إليها طبع أهلها فرفضوا ما سواها وأنتج موشحته الفريدة – من الخفيف وهي موشحة مرؤوسة ومن خمسة أدوار والتي مطلعها جرر الذيل أيما جر وصل السكر منك بالشكر فغنتها تلك القيان مطربة شجية جمعت في منهجية بين الأنغام العربية والنصرانية منسجمة في ألحانها. إذ ليس من المعقول أن يكون عمل الموشح والزجل من الأعمال أو الإنتاجات التي ظهرت في الأندلس وشبت وترعرعت في البلاد المغاربية وتنظيرها آت من بلاد المشرق ولا يستهان بما قام به أهل المشرق في هذا المجال لأنهم في ذلك يقربون هذا العمل لأهل المشرق، أما أهل الغرب الإسلامي في الأندلس والمغرب فإن الموشح والزجل – منهم وإليهم ورحم الله ابن بسام الذي خلف نصف صفحة من ذخيرته مشتملة على مصطلحات أندلسية في عمل الموشحات، كما لا نفرق في عمل الموشح والزجل من حيث البنية ومن حيث المصطلحات المشتركة بينهما فانظر في ذلك ديوان ابن قزمان وديوان ابن عربي فيما خلفه من توشيحات حسب المصطلحات الأندلسية من إنتاجاته وتضميداته التي تعتبر حسب المفهوم الشرقي.